المحترف

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: المحترف
المؤلف: خالد حمدي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 146 صفحة
عدد الملازم: 9.12 ملزمة
مقاس الكتاب: ١٤ x ٢٠
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024/2664
الترقيم الدولي: 978-977-6697-850

محفوظة
جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

المحترف

مجموعة قصصية

خالد حمدي

عطاوي
للإنتاج الفني

روحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيمٍ لروحك يا أمي

رفقائي الأخلَّاء، «عائلة ريفيرا»
أهدي إليكم هذا العمل

مغبونٌ مَنْ آمَنَ أنَّ الحياةَ خُلِقتْ للمُتواكِلين

صديقي.. مُلحد؟!

هَالَني منَظره الأشعَث وحالته المتبدِّلة!

لم ألتقِ به منذ شهورٍ طويلة، ولم أكن أتخَيل قط أن أراه على هذه الحال التي بدا عليها أكبر سنًا، لا سيَّما بذلك الشيب الذي ضَرب بمعظم رأسه، وتنَاثر في لحيتهِ الكَثَّة!

«أهذا وليد صديقي الصدوق؟!»

تساءلتُ في دهشة فور رؤيتي له بينما كان يسير بلا هدى، تحتل قسماته ملامح التعاسة والحزن، لم يرني وأنا أدقق فيه النظر، الغريب أنه مرَّ جواري دون أن يعرفني رغم تلاقي أعيننا، لم تبدُ عليه أي ملامح تشي أنه تعرَّف عليَّ، كان متجهمًا شاردًا، ينظر في الأرض أمام ناظريه تارةً، ويرفع رأسه يتطلع إلى الوجوه من حوله تارةً أخرى، شكله الأشعث وهندامه المبعثر أجبراني أن أتقدم وأستوقفه؛ إذ لم تكن صداقتنا المتينة لتدعني أستكمل مسيري دون اكتراث، وما إن تحركت مِن خلفه بعدما قطع عدة خطوات واهنات ناديته بصوتٍ مرتفعٍ:

- «وليد».

لم يجبني، ولم يتوقف عن تحركه كأنه لم يسمع ندائي، فناديته مرةً ثانية، وبهذه المرة لم يجِد جديدٌ أيضًا، لقد استمر في مسيره دون أن يبدي أي اهتمام لصوتي الذي أسمع الناس من حولنا فشعرت ببعض التحرُّج، ابتسمت في خجلٍ يشوبه بعض التوتر، ثم أسرعت الخطى نحوه بعدما اعتلى ذلك الإفريز، فممدتُ يدي نحو كتفه أربِّت عليه وأنا أقول بصوتٍ معتدل:

- وليد.. أما تسمع ندائي عليك؟

التفتْ إليّ برأسه وأخذ يتطلع إلى وجهي وكأنه يحاول أن يتذكر ملامحي، لم أمنحه الوقت ليفعل هذا بي، فابتسمت مداعبًا:

- هذي لم تكن عِشْرة ثلاثين عامًا.. أنت تغيرت يا وليد.. الأموال غيرتك.

استقبل دعابتي بوجه خلا من أي تعبير، فشعرت بالقلق يسري بقلبي. فجأةً! اغرورقت عيناه بالدموع، فالتف بجسده كاملًا واقترب مني وألقى بنفسه يعانقني في حرارةٍ شديدةٍ، وجعل يربِّت بيديه على ظهري في انفعالٍ، وبلهفةِ المستجير، وبطريقة أبكت قلبي دون أن أعلم ما مصابه، ظللت أربِّت أنا أيضًا على ظهره في حرارة وأنا أقول له في سعادة:

- ما هذه الغيبة الطويلة؟ أشعر كأني لم أرك منذ سنين طويلة، أين كنت مختفيًا؟ وكيف حال والدتك وزوجتك وبناتك؟ لعلهم جميعًا بخير.

دفعني في رفقٍ بينما أخذ يُربِّت بكفه على جانب كتفي في امتنانٍ، ثم بصوتٍ متحشرجٍ ونبرة متألمة تحدَّث وسألني:

- كيف حالك يا «سعيد»؟ أتمنى أن تكون بخير حال.

بادلته نفس الحركة وربَّتُّ على كتفه وقد ملأتُ مُحيَّاي بابتسامةٍ عريضةٍ حاولت أن أبث بها بعض الهدوء إليه، ثم أجبته في ودٍ:

- والله أنا بخير حال، المهم أنت.. ماذا بك؟ هل هناك مكروه أصابك؟ تبدو في حال غريبة لم أرك عليها من قبل!

شرد ببصره ثم همَّ بقول شيء ما، لكنه تراجع عنه فسألته سريعًا:

- هل لديك أي مواعيد الآن؟

أجابني في شرودٍ:

- لا.

نظرتُ لساعة يدي ثم عدت برأسي وابتسمت مجددًا قائلًا بحفاوة:

- حسنًا، لقد اقتربت صلاة العصر، ما رأيك أن نذهب إلى المسجد ونـ...

- «لن أصلي».

قاطعني بصوتٍ حادٍ بهذه الجملة، فتلجَّم لساني فورًا وأنا أنظر لملامحه الغاضبة وقسماته التي تبدلت فجأة، حاولت أن أفهم ما سرّ جملته فعاودت القول:

- إن لم ترد الصلاة بالمسجد فتعالَ معي نصليها سويًا بمنـ...

- «أخبرتـك أننـي لـن أصلـي، ولـن أقـوم بهـذه الحـركات السـخيفة التـي تؤدونهـا».

هكذا قاطعني في قوةٍ وحسمٍ، فما كان مني إلا أنني قلت في تلقائية:

- أستغفر الله.. ماذا تقول يا وليد؟!

قال في سخرية:

- أقول ما سمعته يا سعيد.. آه أعتذر، يا شيخ سعيد.

تمالكـت أعصابـي وأنـا أنظـر لوجهـه الغريـب علـى عينـيّ، كان أقـرب لرجـلٍ مشـتَّت يهـذي، يكفـر بأنعـم اللـه دون وعـي أو درايـة، ولأنـه صاحـب فضـل عليّ، وأنـه مـن أرشـدني لطريـق الهدايـة، ولأننـي مؤمـن أن هنـاك خطبًـا مـا أصابـه، عـدت للابتسـام فـي هـدوءٍ ثـم قلـت لـه:

- لا بـأس.. حسـنًا، مـا رأيـك بكوبيـن مـن الشـاي بالنعنـاع؟ أظـن هـذا عرضًـا مغريًـا!

رمقني بنظرة ثاقبة، ثم قال بذات النبرة الساخرة:

- وهل ستشاركني تدخين الشيشة أم ستقول أستغفر الله؟!

في رحابةٍ وأريحية قلتُ له:

- سـأقولها فـي سِـري يـا وليـد، وسـأترك لـك المجـال لتدخـن فـي أمـان.. هـل تحـب مـكان بعينـه أم أقتـرح أنـا؟

في شرود أجابني:

- أي مكان.

على الفور اصطحبته وتوجهنا سويًا لأحد المقاهي القريبة، ثم اخترت مكانًا متطرفًا حتى نبعد عن أعين وأذن المتطفلين، لم أتحدث معه طوال الطريق حرصًا مني لتهيئته للتحدث في هدوء.. ناديت النادل وأخبرته بطلباتنا فأسرع وفي غضون دقيقتين لا أكثر وضع صينية عليها كوبان من الشاي وصحن صغير عليه أوراق النعناع الطازجة وآنية فضية صغيرة داخلها استقر السكر، وضعت له ثلاث ملاعق، وملعقة واحدة لي وقلَّبت الكوبين جيدًا، ثم وضعتُ بعض أوراق النعناع والتقطتُ كوبه ودفعتُ به إليه، والتقطتُ خاصتي وبدأت أرتشف في هدوءٍ ثم بدأت أتحدث:

- منذ أكثر من عشرين عامًا وبعد أن تركتني خطيبتي، وخسرت وظيفتي، ومات والدي الذي كان سندًا ودعمًا، أتذكر أنني كنت على وشك الكفر بالله بعدما وجدتني أفقد كل شيء؛ الحبيبة، والمال، والوالد، وصرت كمن تتلقفه أمواج البحر الثائرة وهو مستسلم لقدره، كانت هناك نوازع تتملكني، ومثالب كثيرة تسيطر عليّ، وأفكارٍ كفرية يموج بها عقلي، تعصف به وتأخذه من عنان السماء إلى أسفل سافلين، تحطني الظنون وترفعني الآثام، تلقي بي الوساوس لتدهسني أقدام الشر الساحقة حتى...

وقفت عن الحديث وأخذت أتطلع إليه فوجدته ينظر نحو مجهولٍ، فاستطردت سريعًا:

- حتى وجدتك أمامي تنبلج من العدم، كأن الله أرسلك إليّ لتنتشلني

من غياهب وظلمات استبدت بي، وتصل بي لبر الأمان.. أما تتذكر ما نصحتني به آنذاك؟

التفت إليَّ دون أن يجيب، فأكملت دون أن أنتظر منه جوابًا:

- أخبرتني أن أستغفر الله، نعم، نصحتني بهذا، وأخبرتني أيضًا أنني في ابتلاء عظيم من الله وعليَّ أن أنجح في الامتحان، وسألتني بالله أن ألزم الاستغفار ليظل لساني رطبًا به.. لا زلت أتذكر كلماتك، لكأنني سمعتها بالأمس القريب.. هل تتذكر يا وليد؟ هل تتذكر حينما قلت: الاستغفار يا سعيد يغفر الذنب، الاستغفار يا سعيد يُنزل الغيث، الاستغفار يا سعيد يأتي بالمال والأولاد، الاستغفار يا سعيد يُدخل الجنة، أنسيت هذا؟ يعلم ربي أني ما وجدت في الاستغفار إلا خيرًا، وقد وهبني الله الزوجة والولد، وأعطاني المال والنعيم، ولا زلت أستغفره.. ماذا حلَّ بك يا صديقي؟ ما الذي بدَّل حالك هكذا؟ أين المرح الذي اعتاده المحيطون بك منك؟ أين ابتسامتك المشرقة؟ أين تلك الطاقة والحيوية التي كنت تتمتع بها مذ كنا غلمانًا نلعب الكرة سويًا، فمن هذا البائس الذي أراه؟ أنت لست وليد، الذي يجلس أمامي الآن شخص آخر مدمَّر ومحطَّم!

توقفَ عن رشف الشاي عقب انتهائي من جملتي الأخيرة، مدَّ يده ووضع كوبه على الطاولة، ثم قال في شرود وبصوتٍ خافت:

- ضاع كل شيء، خسرت مالي، واستولت زوجتي على المتبقي منه قبل أن أكتشف أنها تخونني مع شريكي، لقد أخذت مني الغالي والنَّفيس، أخذت بناتي وبعدت عني، رفعت ضدي قضية خُلع والقاضي حكم لها، فأخذت البيت لأنها حاضنة، وحرمتني من أميراتي.. ماذا تريدني أن أصنع أو أقول حيال كل ذلك؟

أجبته على الفور:

- المؤمن دومًا مصاب ومبتلى، عليك أن تحمد الله وتستغفره كثيرًا، هكذا تعلمتها منك.. أونسيت: فقلتُ استغفروا ربكم؟!

نظر نحوي في هدوءٍ في الوقت الذي أتى فيه شاب متوسط العمر يحمل النارجيلة بين يديه، نظر نحونا فأشار إليه وليد فوضعها الشاب جواره والتقط «النبريج» والتقم فوهته بفمه وسحب منها نفسين طويلين حتى جاء بالدخان، مسح بأصابعه فوهة النبريج ثم دفع به لوليد الذي التقطه وبدأ يسحب منها الأنفاس في نهمٍ عجيب يغازله صوت كركرة المياه.

ابتسمتُ في حزنٍ ثم سألته:

- هل تشعر بالسعادة الآن؟!

أطلق زفيرًا معبَّأ بالدخان، ثم قال بصوتٍ هادِئ بدا متغيرًا بسبب اختلاطه بالدخان:

- لا توجد بقاموسي كلمة بهذا المعنى!

ارتشفتُ من كوبي رشفةً أخرى ثم سألته سؤالًا آخر:

- لماذا لم تجبني؟

- على ماذا؟

- على جملتي!

- أي جملة تقصد؟

قلت له في ثباتٍ:

- إن المؤمن مصاب ومبتلى، وعليه أن يحمد الله ويستغفره كثيرًا لأن هذا ما تعلمته منك، ألم يكن هذا ديدنك؟

سحب نفسًا طويلًا قويًا هذه المرة، ثم نفث زفيره في وجهي ليقول في هدوءٍ تام:

- تريدني أن أستغفر الله! وأين هو هذا الله؟! لا تسألني أن أحمَدَ مَن لم أعد أؤمن بعدله من الأساس.

اتسعت عيناي ودارتا من وقع جملته، الحقيقة أن جسمي انتفض بشدة، وشعرت أن هناك خِدرًا بدأ يسري بجسدي، طفقتُ أنظر إليه غير مصدق ما سمعته منه، لم يكن هذا وليد، هذا شخص سيطر الشيطان على عقله، وأخذت أتساءل في توتر وخوف شديد: هل ألحد صديقي؟ لا لا.. لا يمكن هذا، هذا مستحيل!

نظر إليَّ في هدوءٍ ثم استطرد:

- فكرة الإله الأوحد والمعبود العادل فكرة سخيفة ابتَدعها أناس جَاهلون.. لقد خسَرت كل شيء على الرغم من التزامي بالصلاة وغيرها تقربًا لهذا الإله.. صلاة، وعبادة، وصوم، وزكاة، وبالأخير، فقَدت كل شيء، فكيف أعبد مَن أتقرب إليه وفي نهاية المطاف تخونني زوجَتي وأخسَر مالي، وأُحرم من بناتي؟! لو كان عادلًا لظلت حياتي سعيدة وبناتي بين أحضاني، لو كان عادلًا ما ترك زوجتي تبيت في أحضان رجلٍ لا يحل لها! هل تستطيع تخيل ذلك؟ هل تتحمل أن تسمع رسائل صوتية لزوجتك وهي تتغنج لصديقك وشريكك؟ أخبرني ماذا صنعت بدنياي ليكون هذا هو مصيري؟ أي عدلٍ وأي إله تتحدث عنه؟!

تلقفت كلماته في توترٍ سحقني سحقًا حتى بدأت أتعرق، بينما حلقي دون وعي ظل يردد الاستغفار بشكلٍ مستمر.. لم ينقذني من هذا التوتر سوى صوت المؤذن وارتفاع تكبيره لأذان العصر.

استأذنته للذهاب لأداء الصلاة على أن أعود إليه فور انتهائي. الحقيقة لم تكن صلاتي هادئة بالمرة، لم أخشع داخلها كما اعتدت، بل أطاحت برأسي الظنون والهواجس، أفكار كثيرة امتلأ بها رأسي، وأصوات عديدة ترددت به، كيف وصلت الحال مع وليد لهذا المعترك؟ كيف تخونه زوجته؟ كيف تركت نفسها تسقط في هذه الهوة السحيقة؟

انتهيتُ من صلاتي وقد عصفت برأسي ذكرياتٍ كثيرة؛ جعلتُ أتذكر زواجهما وأنني كنت أحد شاهديّ العقد، فتذكرتُ الحب الذي جمع بينهما، ذلك الحبُ الذي جمع شملهما، لقد كانت «وفاء» نِعم الزوجة المُعينة بالفعل، دائمًا ما كان يخبرني وليد بذلك، أخبرني كثيرًا عن نظافتها وكلامها المعسول، وعن مساندتها له وتوفير المناخ الصحي حتى يستطيع إتمام أعماله وإنهاء دراسته للماجستير التي ستتيح له فرصة أكبر ومكانة أعظم في عمله، كل هذا تردد في عقلي بينما كنتُ عائدًا إليه، فنفضتُ تلك الذكريات عن رأسي وبدأتُ أفكر كيف سأساند صديق العمر.

تقدمت نحوه راسمًا ابتسامة عريضة على ثغري ثم جلستُ على مقعدي وأنا ألقي التحية والسلام عليه ولا زال ينفث سحائب دخان من أنفه وفمه، لم يرد السلام واكتفى بأن يقول في جذلٍ:

- هذا الاختراع رائع!

نظرتُ إليه متسائلًا، وقبل أن أسأله استطرد مردِفًا:

- بعض أحجار منه على أتم الاستعداد أن ينسوك مرارة الأيام، ناهيك عن تأثيرها على المخ..

توقف برهةً ثم أطلق ضحكة صاخبة مُردفًا:

- أشعُر بالتنميل في رأسي وثمَّة دوار جميل يحيط به، هذا شعور رائع يا سعيد.. هل تريد أن تجربه؟

أقرن جملته بأن دفع بالنبريج نحوي فرفضت الأمر برفق وحاولت أن أدفع بدفة الحديث إلى اتجاه آخر فسألته:

- متى رأيت بناتك آخر مرة؟

كأنما ضغطتُ على جرحٍ غائرٍ، فمعالم الألم التي احتلت وجهه كانت كفيلة أن تشي بذلك، ظَل ينظر نحو مجهولٍ ثم ردَّ في خفوت:

- أربعة أشهر وثلاثة أيام لم أراهن، أو أضمهن إلى صدري الرحب، أو أقبِّل جبينهن.. أربعة أشهر في عذابٍ مُقيمٍ لا يفلتني، بل يكبِّلني، ويحاوطني إحاطة السوار بالمعصم، عذابٌ لم أجرِبه من قبل، بناتي هن دنياي التي أحيا من أجلهن، من أجل رؤيتهن يكبرن أمام عينيّ.. لقد أبعدَتْهن عني، وتعمدتْ أن تلقنهن وتدس السم برؤوسهن، أخبرتْهن أنني وحش كاسر سأقضي عليهن.. لقد حاولتُ مهاتفة ابنتي الكبرى «جنى» فرفضتِ التحدث معي واستمرت في الصراخ حتى اضطر جدها أن يعتذر لي.. هل تصدق هذا؟!

تأثرت كثيرًا من حديثه لا سيما برؤيتي وجهه المتقلِّص والمحتقن بشدة، لقد ابتلي الرجل بحب بناته، وها هو يُمتحن فيهن وفي فراقهن، يا له من اختبارٍ عسير! اختبار لن ينجح فيه الكثيرون، إي وربي، لن

يفلح في اجتيازه الكثيرون!

سألته:

- هل حاولت التواصل معهن مرة أخرى؟

في استسلام جاوبني:

- حاولت، وحاولت، وحاولت حدَّ أنني أخبرت الناس أني على أتم الاستعداد أن أغفر لأمهن، وسأنسى ما كان منها، وسنفتح سويًا صفحة جديدة، فقط أخبروها بذلك..

صمت عن استرساله فدفعني الفضول لسؤاله سؤالًا آخر سريعًا:

- هاه.. ثم ماذا حدث؟

في خضوع تام تمتم بكلمة واحدة:

- أَبَت.

تنهدتُ وأنا أمرر أصابعي برأسي وأحك فروتي، نظرتُ إليه وإلى حاله، فجاءتني فكرة اقترحتها على الفور:

- ما رأيك أن نفعل كما اعتدنا منذ الصغر؟

نظر إليَّ بتساؤل ظهر في عينيه فأكملت سريعًا:

- نسير بمحاذاة طريق كورنيش البحر حتى نصل إلى قلعة قايتباي، ثم نشرب عصير القصب الطازج المثلج.. ما رأيك؟

في حزنٍ أجابني:

- لا بأس.

سريعًا وصلنا إلى كورنيش البحر، تركته لحظات ثم عدت وبيدي كيسين ممتلئين بالفول السوداني المُملح، ناولته واحدًا وأخذت ألتهم من خاصتي حبَّة حبة، دقيقتان مرَّتا ثم تحدثتُ إليه بشكلٍ مباشر:

- حسنًا يا وليد، كُلي آذان مصغية لسماع قصتك. فكانت إشارة البدء التي ينتظرها فبدأ يحكي:

- حياتي مع وفاء كما تعلم كانت مثالية لدرجة كنت أُحسد عليها، ومنذ بداية زواجنا وأنا أحاول جعْل الحياة بيننا يُغلِّفها الدين، ونتنهج نهج السالفين، فكنا نصلي دومًا في جماعة، وفي صباح كل جمعة من كل أسبوع كنا نقعد سويًا عقب صلاة الفجر حتى الشروق نقرأ القرآن ونبتهل ونستغفر، والحق كانت وفاء دومًا تسبقني، بل وتجتهد للتفوق عليَّ وهذا كان مبعث فخرٍ، فلم تفلت منها جمعة، حتى مع أيام حيضها كانت تستيقظ معي لتشاركني المجلس بعدما تحضر أكواب الشاي بالحليب الساخن، استمرت هذه الحال بيننا لسنوات، ففتح الله علينا فتحًا مبينًا، ورزقنا بثلاث بناتٍ هن كل حياتنا، فكانت ثمرة استغفارنا وشكرنا لله هن أميراتي الصغيرات.

شرد قليلًا ثم استطرد:

- لم يكن يخفى عليَّ تدخل أهل وفاء في حياتنا، خاصة أختها الكبرى التي نالت حظًا موفورًا من رغد العيش مع زوجها المقاول الذي نجحت في طيِّه تحت إبطها وجعله كالخاتم في إصبعها! لم أدع هذا ليشغلني أو أكترث به لأن حياتنا كانت مستقرة، ووفاء بعيدة كل البعد

عن فِكر أختها، ورغم ذلك كنت دومًا ما أنصحها بالابتعاد عن أفكار أختها الطروب صاحبة الموضة الصارخة، والزينة المتلألئة، والأزياء الملفتة، وللأمانة والصدق كانت تستجيب مني وتقول إن علاقتهما لن تخرج عن حيز الأخوات المقتصرة على التحايا واللقاءات العائلية، لكن مع مرور الوقت لاحظت أن وفاء بدأت تتحدث مع أختها كثيرًا، وتطول تلك المحادثات الهاتفية، ويوم وراء يوم بدأ حال وفاء يتبدَّل!

ابتلع ريقه والتقط نفسَه وعاد واستكمل:

في أحد الأيام عدتُ من عملي مبكرًا، وحينما دخلت غرفة نومنا وجدتها ترتدي منامة مثيرة للغاية، وتضع مساحيق وجه ذات ألوان قاتمة كثيفة، هي زوجتي على أي حال، ولم أمنعها من التزين أو ارتداء ما يحلو لها، بالأخير هي بالبيت وليست في الشارع، ولكن لم أعتد منها هذا قط! بدأتْ تتكاسل عن مشاركتي جلسة فجر الجمعة التي كانت ديدننا منذ سنين، وبدأتُ أنا أيضًا من كثرة التعب والإرهاق في التغافل عنها، وبعد مرور فترة بسيطة وجدتها تقترح عليَّ أن نفتتح شركة للاستيراد والتصدير حتى يصبح لنا عمل حر خاص بنا، لم أعرف لِمَ وافقتها رغم أني أعلم أنها فكرة أختها بالأساس، وفي غضون أسابيع افتتحتُ الشركة بالفعل بعد أن تم إبرام عقد اتفاق شراكة بيني وبين وفاء.

صمتَ لحظات، ظنني أنه كان يرتب أفكاره ليستطرد ما بدأه، فسألته مستفسرًا:

- ولماذا تشاركك والمال مالك وهي زوجتك؟

أجابني في حزنٍ:

- أقنعتني أن الزواج شيء والعمل بيننا شيء آخر، ثم إنها تشعر

بالملل وتريد أن تستثمر وقتها، وأن هذا شرع الله، وتلك حقوق لا بد أن تُكتب، وفي النهاية كل هذا رزق بناتنا، فقامت ببيع الذهب الخاص بها، وجاءت ببعض مدخراتها المالية وبالفعل شاركتني، كنت سعيدًا للغاية آنذاك، أشعر بأن ثمرة زواجنا تنضج يومًا بعد يوم، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهيه السفن، لقد لاحظتُ طول الحديث القائم بين وفاء وأختها التي علمتُ أنها خَلَعَت زوجها بعدما تحصَّلت على ثروة تغنيها عن العالمين أبد الدهر، وبدأت أنتبه أيضًا أن وفاء قد أهملت صلاتها وبدأت تغير من طريقة لبسها وزينتها.. في تلك الفترة كانت شركتي الصغيرة بدأت تتنامى بعدما أدخلت شريكًا ثالثًا لنا، اخترت «حازم» صديقي ليشاركنا، حيث إن له باعًا في الأمور المتعلقة بالشحن والتفريغ وبكل ما يتعلق بالاستيراد والتصدير، فبدأ المال يُدر علينا ويضخ، وتحت فرحتي بهذا المال وتلك المكاسب تغافلت عن سلوك وفاء الغريب الذي بدأ بالزينة الملفتة وتغيير نمط لبسها، والذي انتهى بخلعها الحجاب وتدخين لفائف التبغ.

اتسعت عيناي ارتياعًا مما سمعته منه، ولم أستطع إخفاء هذا، فرددت دون وعي:

- أستغفر الله .. أستغفر الله.

لم يسمعني وليد، وبالأحرى أنه لم ينتبه، فأردف مكملًا:

- حاولت إقناعها بلبس الحجاب مرة أخرى فرفضتْ بشدة، العجيب في الأمر أنني حاولت إقناع نفسي أنها فترة وستمضي، وأن من باب المحبة أن آمرها وأصطبر عليها، لكم كنت ساذجًا! لقد بدأت حياتنا تأخذ منحنى آخر أكثر خطورة، تلك اللعينة، أختها، أقنعتها أننا محسودون، وأن هناك من يتربَّص ببناتنا، وأغلب الظن أن هناك مَنْ صنع لنا أعمالًا

سفلية لن يفكها إلا الدجالون والمشعوذون، فصرفتْ مبالغ ضخمة على هؤلاء النصابين، وصارت وفاء غير وفاء التي تزوجتها، بدأت تهمل كل شيء، تركت صلاتها تمامًا، وحاولت أن تخفي بناتنا عن أعين الورى أجمعين، وأدمنت التدخين، وصار سلوكها أكثر خطورة، فما كانت تذهب لمقر شركتنا إلا وقد طلَتْ نفسها بالمساحيق، وارتدت اللافت من الثياب، ووضعت قرطًا من الألماس بأنفها، وأظهرت ذلك الوشم الذي وشمته بعنقها!

وقف وليد ونظر إلى البحر بعد أن صرنا لمسافة لا بأس بها، كان ينظر لقرص الشمس وهو يقترب من الأفق، تنهد وأطلق زفرة ملتهبة قبل أن يقول:

- ثم جاءت الطامة الكبرى!

إن الإنسان لربما يتوقع خطبًا ما، حتى إذا ما سمعه يحاول أن يبدو متماسكًا، أو أضعف الإيمان توقعه لهذا الخطب يقلل من شدة وقع الخبر على أذنيه، ورغم ذلك قد نتلقى الخبر كصاعقة هبطت من السماء علينا. كنت منتظرًا لحظة الحديث عن خيانة زوجته له، لكن ما سمعته جعلني أشعر بالامتعاض والغثيان خاصة حينما بدأ يكمل:

- لاحظت أن شريكي غالبية الوقت يتحدث مع وفاء بما أنها مسؤولة التعاقدات وطرح أسماء عملاء جدد، بداية الأمر كنت أرى أنها علاقة عمل بريئة، لكن بمُضي الوقت بدأت أسمع ضحكاتٍ ونكاتٍ فيما بينهما، وحينما نبهتها بأن هذا تجاوز لا يليق، صدمتني حينما قالت: «وهل أنت رأيته يطارحني الغرام على فراشٍ واحدٍ؟!»

كانت جملة صاعقة للغاية لم أجد لها محلًا من الإعراب، ولأن الشك بدأ يساورني، ولأن حياتي أصبحت على المحك بالأخص بتدخُل أختها في كل صغيرة وكبيرة تخص حياتنا، فقد قررتُ مراقبة هاتف وفاء النقَّال، وببرنامج بسيط يربط الأجهزة النقالة ببعضها البعض، استطعت خلسة أن أربط هاتفها بهاتفي بحيث أصبحت كل التطبيقات التي تقوم بفتحها تفتح عندي!

«يا ويلي مما سألاقيه!»

هكذا أخذ شيطاني يوسوس إليَّ، لا أعلم أهو شيطاني بالفعل، أم هي الحقيقة التي تغافلت عنها؟ لقد اتضحت الصورة كاملة، زوجتي المصون، سندي وحب حياتي تخونني مع صديقي وشريكي، نعم تخونني، لقد رأيت الحديث الدائر بينهما، كانا يتبادلان المزاح والنكات حتى يتحول الحديث بينهما إلى كلام يندى له الجبين، يحدثها عن جسدها المتوهج ورغبته في رؤيتها عارية، فتسجل له تأوهاتها الشبقة، ثم ترسل له صورًا عارية لها! هل أعجبك هذا يا سعيد؟ هل تريد أن تسمع المزيد؟

كنت أحاول عبثًا جمع شمل أفكاري المتناثرة التي غدت كالرماد المنثور، فأنَّى أجمعها؟ لقد توقعت شيئًا يشبه ما قاله، لكن ما أخبرني به وقع عليَّ كمطرقةٍ من فولاذٍ اتخذت من رأسي سندانًا لا تكف عن الطَرْق عليها! ماذا أقول له؟ كيف أواسيه؟ اقتربت منه وربَّتُّ مجددًا على كتفه وقلتُ له:

- لا بأس .. كل شيء له حلٌّ بإذن الله.

صرخ فيَّ بقوة:

لا تقل الله مرة أخرى.. لا تقُلها، لقد كان يسمع ويرى ويعلم بما سيحدث، ومع ذلك تركني، لماذا تركني؟ هاه لماذا؟ ماذا فعلت له ليظلمني هكذا؟ ماذا صنعت من أجل هذه النهاية التي لا أستحقها.

رددت في انفعالٍ:

- أستغفر الله.. أستغفر الله، تُب يا وليد عن قولك هذا، تُب قبل فوات الأوان.

كانت الشمس قد اقتربت من رحلة المبيت، نظر إليَّ بعد أن لانت ملامحه قليلًا ثم قال:

- ولماذا لا تتوب هي؟ لماذا تستمر في ظلمها لي ولبناتي؟ أنت لم تعلم بقية الحكاية بعد يا سعيد حتى تقول لي تُب، لم أكن أتخيل أن أسمع أو أرى ما رأيته، لقد كانت تمسح الرسائل بينهما أولًا بأول، فلم أستطع التحصل على نسخ من رسائلها، صبرت وتجلَّدت وكتمت قهري بداخلي، وبالمرة الثانية وأثناء حديثهما استطعت أن ألتقط نسخًا لحديثهما ولصورها، واستطعت أن أسجل سفالتها بصوتها على هاتف آخر، وأخذتُ كل ذلك وذهبتُ لأهلها، وحكيت لهم كل شيء، وأخبرتهم بتدخُل ابنتهم في حياتنا، هل تدري ماذا حدث وماذا قالوا؟ لقد كذبوني واتهموني بسببِّ عِرض زوجتي بعد أن اعتبروني شخصًا مريضًا لأنني راقبت هاتفها، الأنكى لم يكن في الاستيلاء على خزينة أموال شركتي، والاستيلاء على منقولات الزوجية ورفع قضية تبديد وخُلع، ولم يكن في حكم القاضي لها، بل في سماحهم لوفاء أن تسافر لمدة أربع ليالٍ مع شريكي لإحدى الدول العربية لإنهاء صفقة جديدة، ذلك وهي لا تزال على ذمتي.

قلت في انفعال جارف:

- أعوذ بالله .. أعوذ بالله.

ثم استطردتُ في ذات الانفعال:

- لقد رحمك الله يا وليد، وحق لا إله إلا الله لقد عافاك ربي ورحمك، لا تبتئس ولا تحزن.

اغرورقت عيناه بالدموع وهو لا زال ينظر لقرص الشمس الذي غاص نصفه وراء الأفق، ثم انحدرت دمعة ملتهبة شعرت أنما صنعت أخدودًا على وجنته، أخرجت منديلًا ورقيًا وأعطيته له فأخذه ومسح دموعه ثم قال:

- أنا لست مثاليًا يا سعيد، أنا أيضًا طالني شيء من الشر، تركت صلاتي وأهملتها، وتركت تسبيحي واستغفاري، خسرت كل شيء، خسرت دنيتي ودِيني وآخرتي.

شعرت أن هناك بارقة أمل تنير الطريق، فقلت في حماسةٍ:

- حتى الغرغرة يا وليد.. حتى الغرغرة.

في تردد سألني:

- ماذا تقصد؟!

أجبته على الفور وبحماسةٍ شديدة:

- الله يقبل التوبة ما لم تصل النفس إلى الحلقوم يا وليد، يقبل التوب، ويغفر الذنب، وهو شديد العقاب ذي الطول، لا يعزب عنه شيء

وهـو الغفـور الـودود.

- ولكني لن أسـ...

قاطعته في قوة:

- بل تستطيع.

- وبناتي؟

- سيردهن الله إليك.

- وأموالي؟

- سيعوضك الله عنها.

- وسوء أدبي معـ... معه؟

- استغفره.. آن الآوان أن تستغفره.

قال في حزنٍ عميق حيث اغرورقت عيناه مرة أخرى:

- وكيف أعلم أنه سيقبلني مرة أخرى؟

قلت في ثقةٍ:

- هو يحبك، ولهذا سيغفر لك ويزقك عملًا صالحًا.

قال في ألم:

- وما دليل حبه؟

- أن أرسلني إليك.

رأيت تساؤلًا في عينيه فاستطردت في ثقةٍ شديدة:

- صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وأنت صنعت معي معروفًا وأرسلك الله لي لتكون سببًا لما أنا عليه الآن، وها قد أرسلني إليك الله لأردَّ الدَّيْن، هيا يا وليد هيا.. الله ينتظرك.

كانت عيناه تفيض بالدموع فتملَّكني شعور بالأمان أدمع عيني أنا الآخر، انتهزتُ تلك الفرصة السانحة وطرقت على الحديد وهو ساخن، فأردفت بحماسٍ لم ينقطع:

- أنت إنسان جميل يا وليد وصديق وفي، كنت ولا زلت مثالًا يُحتذى به، الله يحبك وينتظرك حتى يردك إليه مردًا جميلًا.. هيا، تُب واستغفر.. هيا.

- أسس.. أستغ.. لا أقوى يا سعيد لا أقوى.

قالها في بكاءٍ حار، فتقدمت منه وأمسكته من كتفيه وهززته بقوة وأنا أقول في صلابةٍ وثقة:

- بل تقوى.

نظر إليّ ثم انهار دفعة واحدة وهو يردد ما بين دموعه ومُخاطه:

- أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله.

ظل يرددها في بكاءٍ اهتز على إثره سائر جسده، فارتفع فجأةً صوت المؤذن يعلن عن أذان المغرب.

كانت بشرى سارة قُذفت بقلبينا ما إن سمعنا المؤذن يردد: الله أكبر الله أكبر.

عانقته في سعادةٍ وأنا أردد أن الحمد لله، ثم اصطحبته إلى المسجد للصلاة، توضأ ولا زالت عيناه تذرف الدموع، وأثناء الصلاة ما فتأ يردد الاستغفار بصوتٍ متضرعٍ حتى تعالى صوت نشيجه، عقب الصلاة وقفتُ لتأدية صلاة السُنَّة بعد أن رأيت وليد يتحرك إلى خارج المسجد في وهن، سريعًا أنهيت صلاتي وخرجت لأستكمل معه الحديث وماذا سنصنع سويًا، بحثت بعيني هنا وهناك، لكنني لم ألمحه، تحركت باتجاه كورنيش البحر ربما ينتظرني حيث كنا نتحدث، وبينما كنت أقترب من الطريق، لمحتُ هناك بعض الناس يلتفون حول جسد مسجى في قارعة الطريق، شعرت بضربات قلبي تتسارع وأنا أخطو على عجلٍ في اتجاههم، كان هناك ازدحام وتكدس بين السيارات، وثمَّة ملامح هلعٍ تعتري سيدة تحتضن طفلتها في خوفٍ شديد!

- يا إلهي، يا إلهي.. وليد!!

صرختُ فزِعًا وأنا ألمحه ممدًا في الطريق، بينما الناس يقفون فوق رأسه في حزنٍ يحاولون إسعافه، اندفعت كالسهم أمرق بين الجمع حتى وقفت أمامه أنظر إليه بعينين ممتلئتين بالدموع، كنت أبكي لحاله ونظراته الزائغة لا أعلم ماذا أصنع له، جلست القرفصاء جواره وأمسكت يده وسط أعين الناس وحديثهم المرتفع، كان يبتسم إليَّ في وهنٍ شديد، وقبل أن أتكلم سمعتُ أحدهم يقول:

- لا لا، لقد اندفعت هذه الطفلة نحو طريق السيارات المسرعة تاركةً يد والدتها، كانت الحادثة على وشك الوقوع بالفعل، لكن فجأة تحرك هو بسرعة استجابة يعجز العقل عن استيعابها، وكأنها مددٌ من الله

ليلتقط الطفلة بيده ويدخلها في صدره لترتطم السيارة بظهره وتدفعه عدة أمتار لتتلقاه أخرى من الناحية المقابلة.. رأيت المشهد كاملًا، فكنتُ أول من تحرك ووصل إليه وطلبت سيارة الإسعاف!

«أشعر بهم حولي»

قالها وليد لي في وهنٍ واضح، قلت له وأنا أشعر برعشة جسده وانتفاضته:

- أستحلفك بالله يا صديقي أن تدَّخر مجهودك حتى تبقى معنا.

ابتسم بذات الوهن قائلًا:

- اقترب يا سعيد اقترب.

وضعت ركبتيّ على الأرض ثم بكيت في انهيار وأنا أقول من بين دموعي:

- أنا معك يا صديقي، لن أتركك.. ستكون بخير.

- لقد صدقت يا سعيد.. إنه يحبني.

- اصمت يا وليد.. بالله اصمت حتى تأتي سيارة الإسعاف.

سعل فتناثر رذاذ الدماء على وجهي فأجهشتُ في بكاءٍ شديدٍ، أشار لي بإعياءٍ وهو يتمتم بشيء لم أفهمه، فنظرت لوجوه الناس من حولي ودموعي قد بللت لحيتي، اقترب البعض وانضموا إليَّ وبدأوا في تهدئتي، عدتُ بنظري إلى وليد ثم وبصوتٍ الشجي العذب الواهن، وبإرادة إلهية أخذ يتلو القرآن قائلًا:

- فقلتُ استغفروا ربَّكم إنَّه كانَ غفَّارًا، يُرسلِ السَّماء عليكُم مدرارًا، ويمددكمْ بأموال وبنينَ ويجعل لكمْ جنَّاتٍ ويجعل لكمْ أنهارًا، ما لكمْ لا ترجونَ للَّه وقارًا.

صمت لحظات أخذ يسعل فيها، ثم أخذ يردد:

- أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله.

بكت عيني بكاءً مريرًا، والناس من حولي بدأت دموعهم تتساقط تأثرًا به، هناك من أخذ يردد الشهادة، وهناك من وضع كفيه على وجهه يواري دموعه الغزيرة، ومنهم من جلس أرضًا لا يستطيع الوقوف بعد سماع تلاوته العذبة.. صمت وليد لحظاتٍ، ثم نظر لأعلى نحو السماء، أمسك بيدي وأشار بسبابته ناحيتها، فارتسمت ابتسامة سعادة على وجهه وهو يقول: «مرحبًا»..

ثم... ثم سقطت يده، وأُغلقت عيناه، ومالت رأسه، وفاضت روحه لبارئها.

المُحترف

فتاةٌ هي هدفي هذه المرة!

لـم أعتـد مطلقًـا مناقشـةَ رؤسـائي فـي تنفيـذ مـا يُتلـى علـيَّ مـن أوامـرٍ، ولأننـي أجيـرٌ مُحتـرف، فقـد قـرَّرتُ أن أُنهـي تلـك المهمـة الجديـدة فـي سـرعةٍ وبشـكلٍ مبهـرٍ كمـا هـو دأبـي دون أن يَطْـرف لـي رمـش. يُطلـق علـيَّ أقرَانـي قَاتـل الأحـلام الناعـم، وكذلـك المايسـترو، وثمـة لقـب آخـر يلقبوننـي بـه هـو الأقـرب إلـى قلبـي.. المحتـرف!

كانـت مختلفـة، شـيءٌ فـي ملامحهـا العذبـةِ اسـتوقفني لحظـات قليلـة، لحظـات أوغلـت بعـض التـردد بقلبـي، ربمـا يكمـن ذلـك فـي ابتسـامتها الخجلـى، أو بريقهـا المتكامـل، أو حيائهـا المفـرط، لا أعلـم السـر وراء هـذا التـردد، لكنهـا حقًـا مختلفـة. ولا أُخفيكـم سـرًا، هـذا لـم يُضـف جديـدًا عندي؛ فكمـا أخبرتكـم أننـي مُحتـرف لا يُشـق لـي الغبـار، كمـا أن مهنتـي أصبحـت هوسًـا عنـدي وفنًـا أُجيـده دون غيـري، فتلـك التدريبـات التـي تلقيتهـا منـذ نعومـة أظفـاري صنعـت منـي شـخصًا بـلا قلـب، وبـلا مشـاعرٍ، وبـلا رحمـة.

تسللت إلى جوارها دون أن تراني أو تلمحني، ثلاثة أيام كاملة حَفظت فيها خريطة يومها؛ متى تخرج، ماذا ترتدي، ماذا تأكل. وفي ذلك اليوم المنشود ارتدت فستانًا رائعًا ورديًا رقيقًا، جمعت شعرها الناعم وعقدته بشريطٍ مطاطي لونه أحمر قانٍ، وزينت جيدها بهذا العقد البراق الثمين الذي أضفى عليها هَالة مشعَّة من الجمال والبهاء، فبدت أقرب إلى الملكات، دفع هذا بعض الأفكار كي تداهمني؛ لماذا هي تحديدًا؟ لا لا، لن أسمح بهذا، لن أدع جمالها يعرقلني، ولن يستوقفني توسلها بالرحمة، ولأنني متجدد وفريد في مهنتي، فقد عزمت على إنهاء مهمتي دون ترك أي أثر من ورائي. ارتديت حُلَّة سوداء أنيقة لامعة جعلتني أنا أيضًا أقرب لمشاهير هوليود، تحتها قميص أبيض اللون زاهٍ، تُزين ياقته القصيرة رابطةُ عنقٍ معقودة باحترافية، وبمعصمي ساعة باهظة مصنوعة من الذهب و.. وانطلقت لتنفيذ مهمتي.

أود أن أخبركم بأمر ما، عندما تعترينا القسوة وتُغلِّفنا، يغشانا وقتها سوادٌ وغلظة لا فكاك منهما، ولا يسمحان لنا برؤية النور الذي يأتي من طريق الحق، ولكنني كما أخبرتكم مختلفٌ، وفريدٌ، ومحترفٌ، لذا، لن أبالي ببكائها أو صُراخها، أو حتى حياتها. وقفت أنتظر صيدي الثمين حتى لاحت ساعة الصفر، اقتربت منها في هدوءٍ بينما ترفل هي في فستانها الوردي، اخترت مكانًا هادئًا انتقيته سلفًا حتى لا ألفت الانتباه، دُرت سريعًا حتى جئت قبالتها ومضيت في طريقي مُكشِّرًا عن أنيابي، فوضعت يدي اليمنى في جيب حُلتي العلوي، وتحسست موضع سلاحي الرهيب الحاد، أخرجته في بطء، وما إن صرت أمامها لا يفصلني عنها سوى سنتيمترات.. لمحتها تبتسم، تصنَّعت التعثر حتى كدت أسقط أرضًا فاصطدمت بها و..!

وقفت أعدل حُلتي ثم أطلقت أعذب وأروع عبارات الاعتذار والتأسف متعمِدًا أن أقترب منها حتى تستنشق عطري المثير، نظرَت إلى وجهي في عفوية شديدة تحت احمرار وجنتيها الغضتين، وفي براءة مختلفة لم أرها من قبل تحركتُ مسرعًا وثغري قد اعتلته ابتسامة ساخرة متحسسًا بأناملي الذهبية ذلك العقد الثمين الذي كانت ترتديه منذ لحظات معدودة، وبينما كنت ألتفت ورائي أنظر نحوها، أصابتني الدهشة بالفعل حين رأيتها تتعلق بحافلة مزدحمة بشكل لا يتناسب قط مع ملامحها الراقية بينما ثمّة ابتسامة تهكم واضحة ملأت مُحيَّاها وهي تنظر إليَّ وتعبث بساعتي الذهب بين أصابعها في استهتار شديد، وكم شعرت بحماقتي الشديدة حينما نظرت في يدي وأدركت ذلك الشَرَك الذي وقعت فيه، لأكتشف أن ذلك العُقد، صيدي الثمين، كان مزيفًا!

شَنْكَابُوه

لا أعرِفه شخصيًّا، ولم أسمع عن ماضيه شيئًا ثابتًا، كل قصة تختلف عن الأخرى، بيْد أن البعض تحدَّث عن حياته بثقة متناهية، تتنَاقل تلك الألسن وتتحدث عن ذلك الماضي كلّما مر أو جلس القرفصاء أمامهم يطلب من أحدهم «سيجارة»! لم أعرف عنه شيئًا رغم أنه صار من أهم أشهر الشخصياتِ في حيِّنا، يقولون: لا تجعلوا المظاهر تخدعكم، وهذا ما لم نتثبّت منه إلى الآن؛ له شكل مزرٍ يفطر القلب، مؤكد أنَّ ثمَّة لوثة أصابت عقله، غير أنه لم يكن كذلك من قبل، هكذا قالوا، ويزيدون من الشعرِ بيتًا موضحين أنه نال قسطًا مُشبعًا من التعليم؛ قال البعض: لقد درس الاقتصاد والعلوم السياسية، وآخرون أكدوا أنه درس المحاماة، وربما ذاع صيته فيما مضى، واعتبروه أديبًا حينما رأوه غير مرة يجلسُ منزويًا يُطالع الصُّحف اليومية ويخط بذاك القلم.

«شَنْكَابُوه» رجلٌ من حيِّنا، قسماته حادة، يبدو في أواخر الخمسينات من عمره، ولربما قد تخطَّاها، عظمتا وجنتيه بارزتان بشدة، له عينان جاحظتان بلا أهدابٍ تزيِّنُهما، ووجهٌ شاحبٌ بيضاوي تعلوه جبهة صغيرة، ويغطِّي رأسه شعرٌ خفيف ترامى فيه البياض وتناثر، وله أسنانٌ

متآكلة نخرها السوس، وعنقٌ طويل نحيف، وجسدٌ ناحلٌ نفرت فيه العروق؛ يبدو لِخِفَّة وزنه وضعفه كأنما ستقتلعه رياح ديسمبر من فوق الأرض.

«شَنْكَابُوه» رجلٌ من حيِّنا، لم أدرِ أتلك نظرات قسوةٍ التي تملأ عينيه، أم أنه ابتُلي ولاقى أهوالًا لها شاب رأسه وهلك عقله فغدت نظراته هكذا؟

هناك قصة أقرب للصدق -أميل إليها- تقول: إنه كان طبيبًا بارعًا لديه زوجة باهرة الحُسن، وأبناء يحملون نفس جيناتها، أغلب الظن أنه قد أحبَّها حُب العشق والجنون، ومن باب «فتِّش عن المرأة»، فإنها لم تكتفِ باستغلاله فحسب، لكنها احتلته احتلالًا، بل جلست على عرش قلبه، فصارت سيدة العرش، وأصبح هو عبدًا مملوكًا، وخادمًا مطيعًا أمام رغباتها وأهوائها، فأنفق كل ما يدَّخره في سبيل ما يسمى الحب، استدان إلى أن أصبح معدمًا فقيرًا، فظل يجاهد ويجاهد أمام تسلُّطها وسَطوتها وسيطرتها عليه، حتى جاء اليوم الذي اختفت فيه وذابت ذوبان الملح في الماء.

سجينٌ في حبي ما لي فرار

وطيب عيشي يهنأ بالجوار

فكم نعيمًا أمضى في رحابهِ الموت!

وكم من حبيبٍ أشقاهُ لعق المرار!

تلك كانت كلماته التي نقشها على الجريدة بخطٍّ رائع فنقلها العم كمال بائع الجرائد بعدما رآه يكتبها أعلى الصفحة التي كان يطالعها،

فدوَّنها عنده وجاء لاحقًا بخطاطٍ ليصنع بريشته لوحة مزخرفة تحمل تلك الكلمات، ووضعها العم كمال على أحد جدران دكانه، ولم ينسَ أن يجعل الخطاط يكتب على طرف اللوحة «شَنْكَابُوه».

«شَنْكَابُوه» رجلٌ من حيِّنا، اسمه الحقيقي مجهول، لا يعرفُه الناس، أما هو، فالواضح أنه في ملكوته لا يكترث لأي شيء. مَن أطلق عليه هذا الاسم؟ لا أحد يعلم، ربما العم طاهر، ابن صعيد مصر، صاحب محل الخبز البلدي هو مَن أطلق عليه هذا الاسم، فدائمًا ما نراه يجلس القرفصاء إلى جواره ممسكًا بسيجارته، بينما يسحَب العم طاهر أنفاس «شيشته»، إلَّا أن العمَّ إبراهيم، حائك الأحذية، كان له رأي آخر؛ أخبرنا ذات مرة أنه منذ عقدين بعدما تم القبض عليه من قبل إحدى الجهات الأمنية لأسباب غير معلومة، واستمر غائبًا قرابة الثلاثة أشهر، ثم عادوا وألقوا به أشعث أغبر، قال حينذاك أحد ضخام الجثة الذين أتوا به وهو يطلق ضحكة ساخرة شرسة: لقد أصبح من الآن اسمك شَنْكَابُوه، وبمُضِي الوقت وتردد مناداته بهذا الاسم، أصبح لصيقًا به، ولا يُعرف له اسم غيره.

«شَنْكَابُوه» رجلٌ من حيِّنا، خرج من أمامي مرتديًا قميصًا مُمزقًا، وشورتًا قصيرًا، ولم يكن يرتدي خُفًّا، ولا ينتعل نعلًا، فبدت ساقاه الهزيلتان مرتعشتين وضامرتين، وقف ينظُر إليَّ بعينين اعترتهما لهفةٌ غريبةٌ وشراهة عجيبة وهو يشير بالسبابة والوسطى ناحيه فمه إشارة مفادها رغبته في التدخين، وما إن أشار إشارته تلك، حتى وضعت يدي بجيب بنطالي أقبض على ورقة مالية فأعطيته إياها، لكن الغريب أنه رفضها، في الوقت الذي لم ينفك فيه عن تحريك إصبعيه بنفس الإشارة في سرعة، أخبرته أنني لا أدخن، فتراجع خطوتين إلى الوراء، وجلس جلسته المعتادة ينظر نحوي وإصبعاه يتحركان بالقرب من فمه

بنفس السرعة وكأنه يدخن بالفعل!

ظل هكذا عدة ثوان أخرى، ولم أقدِّم له جديدًا، إلى أن تقدم أحد الشباب متطوعًا ومد يده نحوه بلفافتيّ تبغ، وقف على الفور والتقطهما منه في لهفة عجيبة، رفع إحداهما ووضعها بين شفتيه، فأخرج الشاب قداحته وأشعلها له، وفي نهم عجيب وسرعة أعجب أخذ يدخِّنها مراتٍ ومرات بلا انقطاعٍ ودون أن يلتقط أنفاسه أو حتى ينفض رمادها، وفي لحظاتٍ قليلة انتهتْ اللفافة، فالتقط الأخرى ليشعلها ببقايا لهب الأولى، ثم فعل بها تمامًا كما فعل بالتي قبلها، وما إن وصلت إلى نهايتها وحرقت جزءًا من الجزء الفللينى باللفافة، وقف وتقدم نحوي بنفس النظرة، ونفس الطلَّة، ونفس إشارة يده معلنًا عن رغبته في المزيد من لفافات التبغ، لم أجد ما أفعله أو أقوله غير تلك النظرة الحزينة التي طلَّت من عيني موقنًا أنَّ الرجل لديه سرٌ غامض ربما انكشف عنه الغطاء يومًا ما.

أوليته ظهري متأثرًا، حمدت الله وشكرته، بينما جعلتُ أفكر ككل مرة: يا تُرى، هل من الحب ما قتل وجن؟ وما سرُّ ذلك الرجل؟ وأي القصص التي رُويت عنه هي الصحيحة؟

المُتشرد

"فقط حينما تملك بذرة الأمل، لا تشعر بمدى تعاستك"

وقف على مسافة متوسطة يرقُبُها ويختلس منها النظرات الفاحصة من خلف الحاجز الزجاجي، أخذ يتفرَّس قسمات وجهها وملامحها الساحرة، بينما كان العامل يضع أمامها فنجانًا خزفيًّا وبعض أكياس السكر الورقية، رآها وهي تمنحه ابتسامة عذبة ثم تُفرِغ كيسًا واحدًا من السكر على المشروب، كانت تجلس في استمتاعٍ على مقعدٍ مريح مبطَّن أسطواني الشكل ومتوسط الحجم، حيث اختارت تلك الطاولة الفردية المنعزلة بجوار الزجاج الكاشف الذي يفصلها عن الطريق ليتسنى لها رؤية زخات المطر المتتابعة والمنهمرة بالخارج وعلى الزجاج.

حوَّل بصره ناحية الفنجان الذي يتصاعد منه البخار فشعر بحرارة المشروب وكأنها تدفئ جوفه في هذا الطقس البارد، رفعت فنجانها بيدها اليسرى بينما أراحت أصابع اليمنى على كتابٍ مفتوح تقرأ فيه، حركت رأسها يسيرًا نحو الفنجان دون أن ترفع عينيها عن تلك الصفحة فبدا للحظة وكأنه سينسكب، دنت بشفتيها القرمزتين نحوه أكثر وارتشفت

من المشروب الساخن رشفة شعرت معها بدفء وسعادة، فارتسمت ابتسامة رضا على وجهها الخلاب في الوقت الذي كان يراقب كل لفتة من لفتاتها، وكل إماءة أو إشارة أو حتى ارتدادة طرف. ظل هكذا حتى انتهت من المشروب خلال دقائق، التفتَّ ينظر خلفه ليطمئن أن أحدًا لن يزعجه، وحين عاد ببصره رأى العامل مجددًا وهو يضع أمامها طاولة بلاستيكية مقسمة بها شطيرتان ملفوفتان إضافة إلى بعض المقبِّلات.

أزاحت الكتاب قليلًا بعد أن طوت جزءًا من طرف الصفحة وأغلقته، ثم شرَعت في التهام الشطائر، كان يبدو عليه الوهن والضعف، لكنه لم يكترث لذلك فليست تلك المرة الأولى، لقد جرَّب ذلك الشعور لعشرات المرات، حتى إنه لم يعد يستطيع حصر الليالي التي قضاها وهو يتضور جوعًا تقرصه معدته الخاوية، ويسمع صوت قرقرة بطنه، لكنه بالأخير يكوِّر نفسه علَّ النوم يأتيه، كم تقلَّب على جانبيه من شدة الجوع، وكم شتاءً مرَّ عليه نخر البرد فيه عظامه، لذا لم تشغله رجفة أصابعه، وتيبُّس ساقيه، وعيناه الزائغتان، فجعل يتابعها وهو يُمنِّي نفسه بوجبة تسد رمقه وجوعه، ومشروب يقيه لسعة البرد، وبحركة لا إرادية بلَّل شفتيه بلسانه الجاف علَّه يروي حلقه. أخذ يرمق حركة شفتيها الشهيتين كحبات الفراولة الناضجة بينما تقضم من الشطيرة وتلوكها في هدوء زاد من جريان ريقه. لم تعد تشغله الآن حبات المطر التي بدأت تتسابق لتوسِعه بللًا، لكنها بذات الوقت تكاد لا تتخلل فروة رأسه الشعثة المجعدة، هيئته الرثة وأسماله المهلهلة لم تثنياه أيضًا عن الصمود في وقفته، اقترب من الزجاج أكثر بخطوات بطيئة حتى أصبح على بُعد سنتيمترات قليلة منه، اقترب بوجهه أكثر حتى إنَّ أنفاسه المتلاحقة كثَّفت بخار الماء على الزجاج، فرأى جمالها بعينين زائغتين وجوعٍ أرجف عظامه، لم يمنع هذا إلقاء بذرة الأمل بجوفه، فسقتها رغبتهُ سريعًا لتغدو شجرة يقين وارفة ظلالها تؤتيه بثمار حلوة المذاق حتى

بـات تحقيـق رجائـه وشـيكًا.

حيـن تطلَّـع إلـى صورتـه الطيفيـة المنعكسـة علـى الزجـاج هالـه مـا رآه مـن هيئتـه الرثَّـة التـي ربمـا كان يراهـا لأول مـرة منـذ زمـن بعيـد!

أخفـض عينيـه ناظـرًا لكفيـه المعفرتيـن وأخـذ يقلِّبهمـا فـي اسـتغراب شـديد، فجـأة شـعر بحـزن عميـق اسـتبد بـه، تذكَّـر حالـه فـي تلـك السـنين العجـاف التـي مـرت عليـه وتعـب مـن أن يحصـي أيامهـا الجافيـة ولياليهـا القاسـية، ذكريـات مريـرة حلَّـت بخاطـره، مرقـت كسَـهْمٍ اختـرق خلايـا عقلـه، سـرعان مـا تغلَّـب عليهـا لتعتلـي نظـرة تائهـة قسـمات وجهـه مـن جديـد، أدار رأسـه بعيـدًا ينظـر بعينيـن خاويتيـن نحـو مجهـولٍ، ثـم عـاد بهمـا ليرفـع رأسـه متطلعًـا إلـى السـماء، أغمـض عينيـه تـاركًا رذاذ المطـر الـذي تحملـه الريـاح يسـكن وجهـه، وحيـن عـاد بوجهـه نحوهـا وجدهـا قـد توقفـت عـن الطعـام وأخـذت تنظـر إليـه فـي توترٍ ملحـوظ!

غريبـة تلـك الفتـاة! لمـاذا لـم تنهرنـي وتُمطرنـي بنظـرات اسـتهجان وازدراء كبقيتهن ؟ !

جـال ذلـك الخاطـر بعقلـه كومضـة مشـتتة اختفـت علـى الفـور، رفـع يـده فـي صمـتٍ ووضـع كفـه المتسـخ علـى الزجـاج وهـو مـا زال يحـدِّق فيهـا بنظـرة هـي مزيـج مـا بيـن الاستحسـان والطمأنينـة، أمـا هـي، فقـد أصابتهـا دهشـة بالغـة، لـم تكـن بسـبب منظـره بقـدر مـا كانـت لتلـك العاطفـة تجاهـه.

حدَّثت نفسها:

- نظرتـه غريبـة! كيـف تجمـع بيـن التيـه والعمـق؟ وكيـف اخترقـت أعماقـي بهـذه الرحابـة العجيبـة؟ لـم تسـتمر تلـك المحادثـة داخلهـا طويـلًا، وجـدت نفسـها تبتسـم إليـه فـي ودٍ ثـم أشـارت إلـى طعامهـا، سـحب كفـه

وأنـزل يـده إلـى جانبـه وفـي عينيـه نظـرة حيـاء، كانـت نظـرة كافيـة لتجعلهـا تقـف وتـدور حـول الطاولـة دون أن تبعـد ناظريهـا عنـه، ثـم التقطـت الشـطيرة الثانيـة وقربتهـا ناحيـة الزجـاج، فنظـر إلـى يدهـا فـي أسـى بالـغ ثـم رفـع عينيـه إليهـا مدقِّقًـا فـي زُرقـة عينيهـا الحالمتيـن، مـدت يدهـا مـن خلـف الزجـاج مـرة أخـرى وأمـاءت برأسـها تشـجعه علـى قبـول الدعـوة، لـم تكـن تتخيـل وقتهـا أنـه سيسـتجيب لهـا، لذلـك شـعرت بثغرِهـا يفتـر عـن ابتسـامة بريئـةٍ جديـدة عندمـا تبسَّـم لهـا وأشـار برأسـه علامـة القبـول.

شـعور عجيـب لـم تـدرِ مـا كنهـه، دعاهـا قبـل الخـروج لإعطائـه الشـطيرة للإقـدام علـى عمـلٍ آخـر غريـب! اندفعـت مشـاعر عطـف داخلهـا كأمـواج عاليـة تتقـدم تتـرى، فاقتربـت أكثـر دون أن تكتـرث لنظـرات السـخرية التـي بـدأت تطـل مـن عيـون المحيطيـن بهـا، فبعضهـم قهقـه بصـوتٍ عـالٍ، والآخـر ألقـى علـى مسـامعها عبـارات سـاخرة، لكـن الغريـب أنهـا لـم تعِرهـم أدنـى اهتمـام وظلـت متمسـكة بمـا قررتـه. رفعـت يدهـا فـي هـدوء وعلـى ثغرهـا ابتسـامة أشـرق لهـا محياهـا وكأنهـا تحثـه علـى الابتسـام لهـا، ثـم قامـت بوضـع كفهـا علـى الزجـاج وانتظـرت ردة فعلـه.

نظـر إليهـا فـي سـعادة ظهـرت علـى قسـمات وجهـه التـي لانـت بشـكل كبيـر، فـي تـردد رفـع كفـه هـو الآخـر وقرَّبـه مـن الزجـاج، فجـأة دون مقدمـات اندفـع عامـلان مـن المطعـم وانطلقـا نحـوه، أمسـكاه بغلظـة شـديدة وأخـذا يعنفانـه ويسـحبانه فـي قـوة، رفـع رأسـه نحوهـا ونظـر إليهـا فـي اسـتسـلام وخضـوع مؤلمَيـن دون أن يصـرخ أو يقاومهمـا وكأن الألـم لا يعـرف سـبيلًا لجسـده أو حلقـه، صرخـت فـي غضـب شـديد كـي تنهرهمـا وتوقفهمـا عـن فعلهمـا، لكنهمـا لـم يكونـا ليسـمعاها، ضربـت الزجـاج بقبضتهـا فـي قـوة وحنـق للَفْـت انتباههمـا، لكـن بـلا جـدوى، فجـاءت ردة فعلتـه التاليـة لتجمِّـد مشـاعرها.

لـم تعـد تشـعر بذلـك الغضـب الـذي اجتاحهـا أو يشـغلها بالمـرة فقـدان شـهيتها، لـم تهتـم بالنظـرات أو الهمهمـات التـي رطنهـا البعـض، كل هـذا لـم يشـغلها بقـدر مـا هزَّتهـا ودغدغـت مشـاعرها وشـقَّت صدرهـا كخنجـر مسـموم تلـك النظـرة الخاويـة التـي أطلقهـا نحوهـا، وابتسـامة السـعادة التـي اعتلـت ثغـره بعـد أن تفلَّـت منهمـا وعـاد إليهـا سـريعًا ليضـع كفـه علـى الزجـاج فـي نفـس المـكان السـابق، وكأنمـا أراد أن يفـوز بلحظـة سـعادة واحـدة برؤيتـه ابتسـامتها، وقـد منحتـه إياهـا وهـي تضـع كفهـا علـى كفـه تمامًا لا يفصلهمـا سـوى سُـمك الزجـاج، سـحب كفـه سـريعًا ونظـر إليهـا مبتسـمًا نظـرة آلمتهـا بينمـا كان يتراجـع حتـى وقـع فـي قبضـة العامِلِيْـن، التـفَّ إليهمـا ثـم عـاد إليهـا كأنمـا يودِّعهـا ويـودِّع الحيـاة بتلـك النظـرة المستسـلمة، فابتسـم ابتسـامة شـاحبة سـرعان مـا اختفـت وكأنـه يريـد أن يقـول لهـا: أشـكرك.

المنتقبة

رأيتُها تتحرك متجهة نحوي في هدوءٍ ورويَّةٍ بينما كانت تتشح وتتلفَّع بالسواد، لا تظهر منها أي ملامح قط، تحْمِل رضيعًا حرصت أن تضعه في حاملٍ مخصص له قد ارتدته ولفَّته بشريطٍ حول وسطها، وبشريطين عريضين من عند كتفيها بحيث أصبحَ جسد الرضيع مطمئِنًا مرتاحًا على جسدها وهي تضمه ناحية صدرها في حنان جارف، بيدها الأخرى تعلَّق طفل آخر بهي الطلَّة، باسم الثغر، يمتلك وجهًا ملائكيًا خلَّابًا في غاية الجمال، زيَّنه طابع الحسن الذي شقَّ بذقنه تجويفًا مميزًا.

مرَّت من أمامي دون أن تلتفت نحوي حتى شعرت لوهلة أنني تحولت إلى خيالِ ظلٍ، أو غير مرئي. اتجهت نحو الطاولة التي تقع إلى جانبي ناحية اليمين، ولأنني اخترت تلك الزاوية، وهذا الركن تحديدًا من المطعم، فقد تسنى لي رؤية حركاتها وكل التفاتة تندَّت منها. صراحة، لقد أخذني الفضول أخذًا مذ رأيتُها، فكنت أختلس منها النظرات سارقًا إياها، مترقبًا أفعالها، ومتابعًا هدوءها الذي أثار شغفي رُغم محاولاتي المتعددة التي تحاشيت فيها فضح أمري بتطلُّعي المستمر لها والذي استغربته في نفسي كثيرًا، لكن صراحةً لم أكن أستطيع أن أكف أو أمنع

نفسي من إلقاء نظراتي الثاقبة نحوها.

جلستْ وأجْلست طفلها صاحب طابع الحسن على المقعد المقابل لها، ثم وضعت رضيعها بجانبها تعدل من جلسته وتحاوطه برعايتها، وحينما جاءها النادل بقائمة الطعام وضعها أمامها ثم استعد للانصراف، أشارت إليه فتوقف، نظرت سريعًا وهي تقلِّب صفحاتها، ثم رفعت رأسها نحوه فابتسم في حماس وهو يسألها:

- ما طلبك سيدتي؟

عادت لتشير مجددًا بإصبعها، ولكن بهذه المرة وجهته نحو القائمة وهي تشير إلى شيء بها:

- لماذا أشارت دون كلام؟

هل هي بكماء؟

لا زالت ابتسامته مرتسمة على وجهه، فاتسعت أكثر وهو يسألها مؤكدًا عليها اختيارها:

- وجبة اللحم المشوي؟

أومأت برأسها أن نعم! كنتُ قد توقفتُ عن ابتلاع الطعام المطحون بفمي وتنَاسيت تمامًا أمر تلك الوجبة الدسمة التي فُرِشت أمامي وأنا أشرد بذهني بعيدًا وأسأل نفسي متعجبًا: ما أغرب هذه المرأة!

وبينما كنت أنظر إليها خُيِّل إليَّ أنها ألقت بنظرة جانبية نحوي، فأطرقتُ نظري أرضًا على الفور، بَيْد أنها كشفت أمري، فماذا أصنع؟

أخذتْ تداعب طفليها في هدوءٍ دون أن أسمع لها صوتًا، فقط بعض الإشارات، وبعض الحركات، وبعض الإيماءات. حالًا جاء النادل بالطعام ليضعه أمامها في هدوءٍ وهو يلقي على مسامعها عبارات الحفاوة والترحيب ثم انصرف. ما زلتُ أُتابعها في فضولٍ كاد يفضحني، لوهلة فكرت في التوجه نحوها وعرض مشاركتي إياها الطاولة والطعام، لكنني عدلت عن هذا السخَف في اللحظةِ الأخيرة.

نظرت بجانب وجهها نحوي، ثم قامت من جلستها لتحرك المقعد وجلست مرة أخرى بحيث أصبحت عيناي لا ترى سوى ظهرٍ غطته تلك الملحفة التي ترتديها. أيُّ هُراءٍ هذا، وأي تشدد؟! استنكرتُ فعلتها بشدة وشعرت داخلي بغضب بدأت ثماره تنضج وأنا أتساءل في دهشة غاضبة: أهذا هو الالتزام؟ شعرت بلفحٍ من الغضب اعتلى ملامح وجهي وأنا أنظر إليها حتى أقدمتُ على عملٍ فيه شيء من العناد والبرود. أزحتُ مقعدي قليلًا أنا الآخر بحيث ظهر وجه طفلها الجميل أمامي، فنظرت إليها لأجدها قد خلعت قفاز يدها اليمنى لتتمكن من إطعام طفلها، فجأة، نظرتْ نحوي لتجدني أتطلع إليها في برود، سحبت يدها الممدودة بالطعام التي كانت في طريقها نحو فم طفلها سريعًا لتنحي تلك الملعقة جانبًا، ثم قامت بشدِّ كُم عباءتها لتغطي ما تمكَّن لها من كفها الأيمن.

بلغ بي الغضب ذروته، وودتُ فعلًا أن لو قمت وتوجهت نحوها؛ إما لأُلقنها درسًا دينيًا أوضح فيه منهاجنا الوسطي وأُخبرها أن ما تقوم به مجرد تشدد لن تجني منه سوى نفور الناس من حولها، أو أن أدفَعها أرضًا! وكان ضربًا من الجرأة فعلًا حينما تركت ملعقتي أنا الآخر في غضبٍ وثورة دفينة وعدتُ بظهري إلى الوراء أستعدُ للنهوض والتقدم نحوها. هنا دقَّ جرس هاتفها الخلوي بنغمة دينية فقامت بالرد.. سخرت

منهـا قائـلًا بلكنـة متهكمـة وبصـوت خافـت: تتكلميـن إذن ولسـتِ بكمـاء!

أرهفـتُ السـمع، لكنـي مـا سـمعت شـيئًا مـن حوارهـا الخافـتْ سـوى: نعـم.. الخامسـة.. نـور الديـن .. سـأنتظرك.. حاضـر. أغلقـتْ هاتفهـا فـي هـدوءٍ وعـادت تُطعـم طفلهـا، ثـم ترفـع تلـك (البيشـة) قليـلًا لتدخـل يدهـا مـن تحتهـا وتبـدأ فـي تنـاول الطعـام. ظلـت هكـذا تحـت نظـرات الضيـق والاسـتنكار التـي اقتحمـت ملامحـي حتـى انتهيـت مـن طعامـي، ناديـتُ النـادل أطلـب شـيك الحسـاب فأتانـي مهـرولًا، أعطيتـه حسـابه ووقفـتُ أعـدل مـن هندامـي ولـم أنـسَ بالطبـع أن أصـبَّ جـام غضبـي فـي نظراتـي نحوهـا شـاعرًا بسـخطٍ شـديدٍ عليهـا وعلـى تشـددها المسـتفز. تحركـتُ مسـتعدًا للخـروج حامـلًا وجهًـا عبوسًـا ونظـرات سـاخطة، وددتُ لـو رأتهـا حتـى تفطـن لمـا أشـعر بـه. وبينمـا كنـتُ أتحـركُ، وفـي الوقـت الـذي كانـت تُطعـم طفلهـا الصغيـر بعـد أن أجْلسـته علـى فخذهـا، أمسـك الطفـل بتلـك البيشـة بشـكل مفاجِـئ ثـم جذبهـا لأسـفل فـي بـراءة.

يا الله!

تخشَّـبتُ وتيبَّسـتُ فـي مكانـي بمعنـى الكلمـة لا أقـوى علـى التحـرك، أو التحـدث، أو حتـى علـى التنفـس! أُشْـهِدُ اللـه أن وجههـا كان منيـرًا براقًـا حينمـا رأيتـه فـي تلـك اللحظـة، وجـهٌ أقـرب للحـور العيـن، بـل هـي إحـدى الحـور العيـن ولا شـك، فلـم تـرَ عينـي مَـنْ هـي أجمـل منهـا مـن قبـل، وربمـا لـن تـرى، أقسـم أننـي كـدت أبكـي ولا أعـرف لِـمَ، مجـرد شـعور انتابنـي، فمـا إن جـذب الطفـل ذلـك الجـزء مـن نقابهـا وتكشَّـف وجههـا حتـى تحركـتْ فـي سـرعة غريبـة، دفعـت بطفلهـا جانبًـا، وحاولـت أن تسـتدير بوجههـا بعيـدًا عـن عينـي، فأمالـت برأسِـها أسـفل فـي محاولـة لإخفـاء وجههـا بطريقـة بـدت وكأنهـا قـد تعـرَّت تمامًـا، غيـر أن جلـوس طفلهـا علـى قدمهـا قـد أعاقهـا لترفـع ذلـك الجـزء السـاقط فـي الوقـت المناسـب فتسـنَّى لـي رؤيـة وجههـا

للحظتيـن لا أكثـر، وكفـى أنهمـا لحظتـان!

كل مـا شـعرتُ بـه وقتَهـا أن كل مشـاعر الغضـب والاسـتياء تجاههـا تحولـت لاحتـرام وتقديـر، بـل وسـعادة جمَّـة بـردود أفعالهـا، وخفقـان ليـس لـه مبـرر. وقفـتُ أمامهـا مبهـورًا بـلا أسـباب أعرفهـا صدقًـا فـي الوقـت الـذي حُشـرت فيـه الكلمـات فـي حلقـي. رجعـت لجلسـتها الهادئـة متدثـرة بردائهـا، وألقـت نظـرة خاطفـة نحـوي ثـم اعتدلـت وعـادت تُطعـم صغيرهـا فـي هـدوء وكأنَّ شـيئًا لـم يكـن. تذكـرت فجـأة جملـة أخبرنـي بهـا صديـق منـذ سـنوات، وكان يدعـو لـي بهـا دائمًـا، فمـا كان منـي سـوى التحـرك، فغـادرت المطعـم فـي خجـلٍ متعثـر ومتلعثـم، ودعـاء صديقـي يتـردد بأذنـي: ربنـا يجعلـك ممـن تربَـت أيديهـم.

الحياة

هل تستحق الحياة حقًا كل تلك المعاناة التي نلاقيها من أجلها ومن أجل امتلاكها والسيطرة عليها؟ هل تستحق ذلك المجهود المبذول كي نسخِّرها لخدمة شهواتنا وملذاتنا؟ أسئلة محيِّرة بالفعل! يبدو أن فلسفة فهم الحياة أعمق بكثير من تلك الصورة السطحية التي نفهمها عنها.

أقف منتظرًا الحافلة استعدادًا لبدء يوم جديد في جو شتوي تهب فيه الرياح البسيطة التي تحرك بعض الأتربة، بينما كنت أرفع ياقة معطفي حتى نهاية أذني طاويًا تلك الصحيفة - الصفراء - تحت إبطي الأيسر، ورافعًا كفيَّ المتكورتين نحو فمي أنفخ فيهما بقوة لبثِّ بعض الدفء -خاصة- بعد غياب أشعة الشمس الصباحية وراء السحب الكثيفة التي أعلنت غضبها وصارت تقذفنا ببعض قطرات المطر الخفيفة، تئن عظامي من انخفاض درجه الحرارة ولا زلت واقفًا، ترتعش شفتاي من البرودة ولا زلت مستمرًا في الوقوف! هناك شيء يدفعني لتحمل تلك المعاناة، هناك سر وراء صبري على ذلك! هل هي الحياة؟!

على حافة لساني كلمات وجمل من شأنها السخط على الحياة، وعلى المجتمع، وعلى الظروف أوشك التفوه بها محدثًا نفسي!

كخليه نحل نشطة أرى الناس يتحركون في سرعة كلٌّ في سوقه، أفواج متتالية من البشر لا حصر لها تظهر تباعًا، على وجوههم تختلف التعبيرات، وفي قلوبهم تختلف أسباب الرغبة في الحياة ذاتها؛ هذا شيخ قد بلغ من العمر أرذله، يتعثر في سبعين عامًا أو يزيد، يحمل وجهًا طيبًا حُفرت على قسماته سنون التعب والفقر، له ظهر محني وعليه جلباب رثّ المنظر، وثمة شال صوف يُحكم به رأسه، وما استرعى انتباهي بشدة ليست تلك العربة «الكارو» التي أولاها ظهره وقد أحكم قبضتيه على ذراعيها ويجر قدمه جرًّا وهو يسحبها من خلفه، ولكن تلك الابتسامة الصافية التي ملأت وجهه في رضًا تام.. يوقفها في مكانه المعتاد ويعيد ترتيب بعض الخضروات -البسيطة- عليها بعدما بعثرتها حركة العربة ثم وبصوت ضعيف مبحوح بدأ ينادي مروِّجًا لسلعِه البسيطة.

أما هذه، فامرأة أراها كل يوم وفي نفس الميعاد، تهرول وتعبر الطريق في سرعة وعلى وجهها جدِّية تامة وتوتر ملحوظ، يبدو أنها تأخرت كثيرًا على ميعاد عملها، موظفة هي، نعم موظفة، هذا واضح جدًّا؛ إذ عليها الاستيقاظ مبكرًا لتدبر شئون بيتها سريعًا، فتبدأ بإيقاظ أطفالها ثم تجهيزهم للنزول للمدرسة دون أن تنسى تمشيط شعر طفلتها وتعديل رابطة العنق المدرسية لطفلها، ولأنها أيضًا زوجة مسالمة ومكافِحة، فمن المؤكد أنها تساعد زوجها على النزول هو الآخر، فتوقظه وتعد له وجبة الإفطار، ليتثاءب في كسلٍ شديد ـ كخرتيت أليف ـ ولا ينسى أن يرميها بعبارات لاذعة لتقصيرها في حقوقه الشرعية، فليس غريبًا إذن ولا يدعو للدهشة مطلقًا أن تجد الوقت قد تفلَّت من بين يديها، فتسرع للنزول لتوصيل أولادها للمدرسة ثم تطوي الخطوات لتلحق بعملها وقد أهملت لفَّ طرحة رأسها بعناية، وبالطبع أغفلت تحضير الشطائر الخاصة بها، ومن المؤكد أيضًا أنها تصل دومًا متأخرة.

أهـا! وهـذه «نشـوى» الفاتنـة، ابنـة جارنـا العزيـز «شـريف»، فتـاة سـاحرة بحق،فمـع نظراتهـا المثيـ..، أقصـد الحالمـة التـي تتعمـد فيهـا تضييـق حدقتيها حينمـا تنظـر نحـوي وتطيـل النظـر بعينـي - لا أعلـم لِـمَ - أرى وجههـا خلابًـا مثيـرًا خاصـة بأهدابهـا الطويلـة، وحاجبيهـا الرفيعيـن، فأضطـر لخفـض عينـي حيـاء بينمـا تظـل هـي تحـدق بـي بـلا خجـل. ورغـم فـارق السـن المتجـاوز العقديـن والنصـف بينـي وبينهـا، ورغـم أننـي تجـاوزت مرحلـة المراهقـة منـذ أمـد، لكنهـا دائمًـا وأبـدًا تنجـحُ أن تسـحرني، وتجـذب انتباهـي، وتثيـر جوارحـي.

ترتـدي قميصًـا ورديًّـا فوقـه بلوفـر كحلـي يصـل بالـكاد لحـدود خصرهـا فـلا يغطـي أي جـزء مـن تنورتهـا الرماديـة المميـزة لـزي طالبـات الثانويـة، تتـأود فـي مشـيتها وهـي تتأبـط ذراع زميلتهـا التـي لـم تنـل حظًـا وفيـرًا مـن الجمـال أو ملامـح الأنوثـة مثلهـا. الحـق أن ابنـة جارنـا العزيـز ينهـال علـى أذنيهـا كـمٌّ مدهـش مـن كلمـات وعبـارات الغـزل والمعاكسـات التـي تدفعهـا دفعًـا نحـو التأنـق والتجمُّـل والفتنـة بمـا يكفـي لغـزو قلبـي بريـح سـاهج يقتلع جـذوره ويفسـد علـيَّ يومـي.

دعونـي أعرفكـم بهذيـن الصغيريـن؛ «شـهاب»و«علياء»، جيرانـي أيضًـا، طفـلان رائعـان جميـلان، يحيطـان أمهمـا مـن اليميـن واليسـار متعلقَيـن بيديهـا، حينمـا تنظـر لهمـا تشـعر بالمحبـة تجاههمـا فـورًا داعيًـا اللـه بـأن يرزقـك مثلهمـا، أمـا أمهمـا، فمـن بيـن نظـرات التحمـل والتجلـد والصبـر، وبيـن نظـرات الرضـا واليقيـن بقضـاء اللـه، تـرى ابتسـامة مشـرقة علـى وجههـا تدفعـك للتأمـل فـي هـذه الحيـاة جيـدًا، وفـي حياتهـا الشـخصية بشـكل خاص، لا سـيما عندمـا تلتقـط عينـاك تلـك الإشـارات والحـركات والإيحـاءات التـي تقـوم بهـا بواسـطة يديهـا لتفهـم وتـدرك حينهـا أن هذيـن الطفليـن أصمَّـان.

ما أشبه اليوم بالبارحة! كأنها لعنة سيزيف، فالمشاهد تتكرر برتابة مقيتة، ترى نفس الوجوه، ونفس الأشكال، ونفس الأجواء، ونفس الإرهاق. يا لها من حياة صعبة يتشاطرها الناس فيما بينهم! كيف يتحملونها؟ وكيف يصبرون على شظفها ومشقتها؟ أسئلة كثيرة دارت في ذهني سرعان ما تبددت في الهواء كما تبددت كل تلك الأفكار الحمقاء من رأسي وأنا أنظر للناس من خلال زجاج الحافلة المبتل متأففًا من فضول ذلك الشخص الجالس جواري، والذي يكاد أن يريح رأسه على كتفي وهو يحاول قراءة بعض العناوين في الجريدة التي أطالعها. أعود لأقلِّب صفحاتها، وأقرأ بعض العناوين المستفزة بها، أنظر مرة أخرى عبر الزجاج لألعن البرودة، وألعن استيقاظي مبكرًا، وأسخط على راتبي، وعلى مديري الغبي بالعمل، وعلى الحياة كلها، فأتأفف مجددًا من جاري، وأنظر لوجوه الناس من حولي ومن خلف الزجاج، لأتذمر من جديد على حالي، وأعود للجريدة، فأتذكر الشيخ الهرِم وعربته الكارو، وأتذكر الموظفة ولفَّة طرحتها غير المنتظمة، وأتذكر شهاب وعلياء و.. وأتذكر نشوى!

الدُّمْيَة

أمام ذلك الباب القديم شرعت تنظر إليه في اشتياقٍ جارف، تسترجع بعضًا من ذكريات طفولتها، أخرجت مفتاحًا قديمًا صدِئًا أدخلته في قفل الباب وأدارته في بطء حتى سمعت صوت تحرك المزلاج الداخلي، دفعت الباب بيدها فأصدر صريرًا مزعجًا ثم فتحته على مصراعيه، أخذت خطوة إلى الأمام لتدلف بها المنزل في محاولة لتذكر مكان مقبس الإضاءة، وضعت أناملها على الحائط لتتحسس مكانه حتى وجدته ومن ثم ضغطت عليه، الغريب أن المصباح أضيء رغم مرور تلك السنوات الطويلة! جعلت تنظر لتلك الأطلال وهذه الظلال المتآكلة داخل المنزل، كل شيء كما هو وعلى حالته؛ الأثاث مغطى بقطع القماش السميك التي تلقت طنًا من الأتربة، منضدة السفرة لا زالت تتوسط المنزل، ولا زالت تلك الوردة البلاستيكية تلقي بظلالها على سطحها المعفَّر. أغلقت الباب وهي تستعيد ذكرى مرَّ عليها بضع وعشرون عامًا من الغربة التي أخذت تلتهم من عمرها بنهم شديد وسرعة خرافية!

الآن هي ابنة العقد الرابع وما زالت تسأل نفسها في حيرة: لماذا ترك والدها هذه الأرض وقرر الرحيل والهجرة؟ لماذا أخذها معه وهي في

عمر الثامنة ليضيِّع بفعلته هذه أجمل سنين طفولتها البريئة التي قضتها فيما بعد في تعاسة حقيقية تحت مخالب الغربة القاتلة بما فيها من عادات وتقاليد ولغة مختلفة؟!

مرت دقائق معدودة تنظر فيما حولها، تتذكر أحلامها الوردية، وألعابها الصغيرة، تتذكر «هالة» صديقتها، والعم «صالح» بائع الحلوى، وتذكرت دُمْيتها الجميلة التي أهداها والدها لها احتفالا بعيد ميلادها الثامن.

توجهت نحو غرفتها ثم أضاءت نورها، أخذت الإضاءة تهتز وترتعش حتى كفت عن جنونها وأُنيرت الغرفة، الصور التي ألصقتها على الحائط كما هي، غير أنها انطفأت بهجتها ولمعتها تحت الرطوبة التي أكلت الجدران؛ هذه صورتها وسط التلاميذ في المدرسة، وهذه صور أبطال أفلامها الكرتونية المفضلة. أدارت عينيها في جميع أركان الحجرة فاستشعرت حنينًا تملَّك منها افتقدته منذ سنين.

أين صندوق أحلامي؟

سألت نفسها وهي تجاهد لتتذكَّر أين وضعته، اتجهت وفتحت دولابها الصغير لتجد بعض ملابسها التي تركتها كما هي بخلاف الأتربة التي غطتها، أخرجت بلوزة سماوية في فرحة غريبة كادت من أجلها أن تبكي، نفضتها في حنان ورفعتها أمام عينيها، ثم وضعتها على جسدها وتحركت لتنظر في المرآه المغبَّشة..

مشوَّشة صورتها!

تقدمت ومسحت بيدها بعض التراب من على المرآة لترى البلوزة وترى تلك السعاده التي قفزت على مُحياها.

أين صندوق أحلامي؟

انحنت أرضًا تنظر تحت سريرها لتجد الصندوق مستقرًا في سلام، مدت يدها وسحبته نحوها ثم حملته في حماس لتضعه على الفراش وجلست بجواره تستعد كي تفتحه. فتحت صندوق أحلامها -كما أسمته- وبدأت تبحث عن دُميتها، أين هي؟ أين؟ أخيرًا! ها هي ذي. وجدتها منكفئة على وجهها، التقطتها في رفق ولفَّت جسدها حتى رأت ملامحها فتدفقت مشاعر الطفلة داخلها.

نظرت لدميتها، وتطلعت إليها طويلًا وكأنما تلتمس منها الحديث، مدَّت كفها الأيمن لتمسح بظهره التراب من على وجنتيها، خللت أصابعها بين شعرها الذهبي، قرَّبتها من فمها وطبعت على خدها قُبلة حانية، أرادت أن تعانقها، أرادت الرقص معها، أرادت مشاركتها الطعام لتطعمها كما كانت تفعل، ودَّت لو قالت لها كلامًا حانيًا على غرار: «دميتي الحبيبة، كم أفتقدتك! سنلعب سويًا حتى يغلبنا النعاس»، همَّت بالقول غير أن لسانها أطلق - رغمًا عنها: ***Unbelievable, I knew that I'll find you here my little sweet doll, I'm ..***)

توقفت عن استكمال جملتها وهي ترفع أحد حاجبيها في غضب وكأنها اكتشفت فجأة أنها لم تستطع التعبير عن فرحتها بالعربية، سرعان ما لانت ملامحها الجميلة وهي تداعب دميتها، فأجلستها جوارها وبدأت تحدِّثها، أخبرتها عن حياتها هناك في غربتها، وعن تلك السنوات الطويلة كأي صديقتين حميمتين، تكلمت، وتنهدت، وضحكت، وصمتت، وشردت، ثم انتهت من حوارها، انتهت وهي تطلق تنهيدة قوية في أسى واضح، ظلت تتطلع إليها طويلًا في صمت.

أخيرًا تحركت بعدما حملت دميتها في يدها ووقفت على أعتاب

بيتها المهجور تنظر لجدرانه وجوانبه في حيرة ووجع، أخذت شهيقًا قويًا دون أن تهتم بكم الأتربة التي تخللت أنفها، أخذت نفَسًا قويًا استنشقت معه رائحة قرابة ثلاثة عقود منصرمة، رائحة غرفتها وثيابها، رائحة دُمْيتها ووالدها الغائب. عضت على شفتيها في قهر لأنها لم تعد تنتمي فعليًا لهذه الأرض وهذا البيت، فأطرقت ولملمت مشاعرها المتبعثرة، ثم أغلقت النور وغادرت لتقضي أسبوع إجازتها بفندق شهير مُطلٍّ على شاطئ البحر.

أمسكت بصندوقٍ جديد مميز قد ابتاعته ووضعت فيه دُمْيتها بعدما اعتنت بها، ثم نظرت عبر زجاج الطائرة إلى السحب المترامية هنا وهناك أثناء رحلة عودتها، فتحت الصندوق ونظرت لدُمْيتها ثم جعلت تداعب خصلات شعرها المجدولة في هدوء وشرود وأسف ولا تعلم كم من الأعوام الأُخر ستنقضي ودُمْيتها في ذلك الصندوق الجديد.. نائمة؟

سائق التوكتوك

تختلف طرق تحقيق السعادة من شخص لآخر، فلا عجب أنه في الوقت الذي يسعى فيه الكثيرون للبحث عن سبل السعادة، يحققها البعض ببساطة وسهولة مدهشة.

أحمل أكياسًا تمتلئ بالخضروات وبعض الفاكهة منتظرًا على الرصيف وسيلة المواصلات المتاحة هنا، «التوكتوك»، يتفصد جبيني عرقًا، ويلتصق قميصي على جسدي بشكل أصابني بالغضب والضيق نتيجة حر أغسطس ورطوبته الخانقة. نظرت يسارًا أترقب وصول أحدها حتى أستقله عائدًا لمنزلي. من بعيد لمحته قادمًا في سرعة جنونية يراوغ السيارات ويتجاوزها في حركات تظهر براعة سائقه وتهوره. تابعته في تركيز أنتظر وصوله، انحرف فجأة ليقطع نهر الطريق ويسير فى الاتجاه المعاكس وقد زاد من سرعته بشدة حتى أيقنت أنه سيصطدم بأي شيء، يبدو أنه كان مصرًا على هذا الأمر وكأنه في تحدٍ مع نفسه. بالفعل كاد يصطدم بسيارة تقودها امرأة لولا براعته الحقيقية في تفاديها بانحرافه الحاد يمينًا قاصدًا مكان وقوفي! وما إن اقترب مني بضعة أمتار حتى ضغط مكبح التوكتوك ليزحف تلك الأمتار القليلة ويستقر أمامي مباشرة،

ثـم يهبـط منهـا منتشـيًا سـعيدًا.

أصابتني دهشـة بالغـة حينمـا رأيتـه يهبـط أمامـي؛ شـاب يافـع لـم يتجـاوز بـأي حـالٍ مـن الأحـوال ثلاثـة وعشـرين عامًـا، فـارع الطـول، يصـل طولـه قرابـة مائـة وتسـعين سـنتيمترًا، هائـل الحجـم، عظيـم الكـرش، يرتـدي سـروالًا متربًـا رمـادي اللـون، وقميصًـا أزرق مُجعْلَـك، علـى رأسـه الضخـم وضـع قبعـة رياضيـة صغيـرة لا تتناسـب قـط مـع ضخامـة رأسـه، يرتـدي أيضًـا نظـارة طبيـة سـميكة لا تـرى مـن تحتهـا عينيـه بوضـوح، علـى أحـد ذراعيهـا لـفَّ لاصقُـا غريبًـا يثبِّـت بـه الكسـر الـذي أصابـه، فتسـاءلت فـي غرابـة: أنَّـى لهـذا التوكتـوك المسـكين أن يتحمـل وزن هـذا الفيـل الضخـم؟!

نـزل وهـو يضحـك بصـوت عـالٍ، التفـت خلفـه ينظـر للطريـق وجعـل يعـدِّل مـن هندامـه ويرفـع سـرواله الـذي سـقط جـزء منـه لأسـفل حتـى ظهـر شـيئًا مـن سـوءته حـاول سـتره ولكنـه فشـل. نظـر نحـوي ودعانـي للركـوب، فركبـت. لـم يكـن هنـاك الكثيـر مـن النـاس فشـاركتني المقعـد الخلفـي امـرأة عجـوز، حشـر جسـده الضخـم حشـرًا فتخيلـتُ أن التوكتـوك سـينقلب بنـا أرضًـا، ضحـك مـرة أخـرى ثـم انطلـق. وحتـى أكـون منصفًـا، فمنـذ الوهلـة الأولـى أثبـت الفتـى براعتـه ومهارتـه وإتقانـه قيـادة التوكتـوك، لـذا حينمـا نظـرت إليـه فـي المـرآة رأيـت السـعادة محفـورة علـى ملامحـه.

اندفـع بالتوكتـوك فبـدا كغـزال رشـيق وهـو ينحـرف بـه يمينًـا ويسـارًا متخطيًـا السـيارات فـي براعـة مدهشـة لـم تنـل استحسـان سـائقي السـيارات حولنـا حتـى إنهـم انهالـوا عليـه سـبًّا ونفيـرًا، أما شـريكتي فـي الرحلـة، فأخذت تصـرخ مـع كل انحـرافٍ يقـوم بـه، غيـر أنـه لـم يوْلِهـا أي اهتمـام، وهـذا ليـس مبعـث عجـبٍ خاصـة مـع حالـة السـعادة التـي غمرتـه. وبينمـا كانـت العجـوز تصـرخ، قـام هـو بتشـغيل إحـدى أغانـي المهرجانـات ذائعـة الصيـت، ورفـع الصـوت بشـكل مسـتفز زاد مـن حِـدة العجـوز وجعلنـي أرقـب تصرفاتـه أكثـر.

في منتصف الطريق تمهَّل قليلًا نظرًا لازدحام الطريق، وبينما كان يدندن مع الأغنية ويميل بجسده في حركات إيقاعية متناسبة مع الأغنية، وبينما كان التوكتوك يسير ببطء قام بعمل شيء فيه من التهور والحمق الكثير! فقد اندفع خارج التوكتوك تاركًا إياه يسير بنا بتلك السرعة البسيطة، وصوت الأغنية ما زال صاخبًا، ثم بدأ يرقص وهو يتحرك بجواره وفي نفس الاتجاه! وصل بي الاندهاش ذروته حينما وجدته يهز جسده الضخم ويرقص في مهارة أيضًا غير طبيعية مقارنة بجسده الهائل؛ إذ كان يرفع قدمًا وينزل بالأخرى في الوقت الذي كان يصنع فيه حركات دائرية بقبضتيه والسعادة تملأ كل ذرة بجسده. ابتسمتُ دون اكتراث لحركة التوكتوك، بينما لم ينقطع صراخ العجوز جواري حتى عاد من رقصه وتولَّى ذراع القيادة وسار بنا من جديد. وصلنا قرب شريط القطار حيث توقفت السيارات جميعًا منتظرة مرور القطار الذي يقترب، أما هو، فقد زاد من تهوره وانطلق كالرصاصة ليتقافز فوق الطريق الوعر متخطيًا السيارات ليسير بمحاذاة شريط القطار، ثم انحرف فجأة عابرًا تلك القضبان قبل وصول القطار ببضع ثوانٍ وسط سيلٍ من السباب والشتائم وصرخات التحذير التي خرجت من أفواه قائدي السيارات والمارة، إضافة إلى نفير القطار وصوته المخيف دون مبالاة منه، الأدهى أنه ظل يطلق ضحكاته في سعادة وكأنما فاز في «رالي»السيارات العالمي. تحدث إلينا بعدها في سعادة حول إمكاناته ومهارته في القيادة، ولم ينتظر ردًّا مني أو من العجوز.

حين وصلنا لنهاية الطريق توقف بنا وسط أصدقائه السائقين ونزل يغني بحماس مع أغنية جديدة، حاول رفع سرواله الساقط وهو يتطلع لأصدقائه ثم أخذ يسبُّهم في مزاح، الأمر الذي دعاهم لتشجيعه ودفع أحدهم للاقتراب منه ليمسك يده وهو يرقص قائلًا في ضحك: ارقص يا «طيخة». ليعود الفتى للرقص مرة أخرى وبشكل أكثر حماسًا.

تحركت مبتعدًا بعدما انتقلت طاقة الفتى إليَّ لأتيقن أن السعادة في أبسط الأشياء، وأن طرق تحقيقها وصناعتها تختلف من شخص لآخر، غير أن اتخاذ القرار هو أصعب ما في الأمر، وليتني أستطيع أخذ القرار لأجعل نفسي سعيدًا مهما كانت المعوقات. لأفعلها ذات يوم كما فعلها طيخة.. سائق التوكتوك.

حبٌّ مُحرَّم

"لماذا تسعى لإعادة فتح جرحٍ قديمٍ قد التأم وداوته الأيام؟!"

قالتها بنبرة بدت حازمة، لكن في الحقيقة هي مصطنعة، ولم يكن ليخفى ذلك على عينيه، أما هي، فلا تعلم هل حقًا قصدت ما قالته، أم أنها مجرد حالة من التخبط قد انتابتها، وصحوة ضمير أخذت تنغز صدرها فتفوهت بتلك العبارة؟

نظر إليها في شجن بعد إلقائها هذه العبارة على مسامعه وسبح بأفكاره. هو الآخر كان يشعر بحزن وأسى عميقين يملآنه، يشعر بتخبط وحيرة تشملان جوارحه، أبت جفونه أن تُسدل، وهجره النوم، فلم ينعم بطعم له منذ فترة ليست بقصيرة، فصورتها دائمًا تحتل فكره ورأسه؛ حديثها، وهمسها، وعطرها، وضحكاتها، كلها أشياء في حقيقة الأمر قد أصبح أسيرًا لها ومتيمًا بها رغم استحالة استمرارها.

يوجعه ضميره أيضًا ويؤرِّقه بين الفينة والفينة ليجعله يفكر في إعادة حساباته من جديد، يفكر في حياته، كيف ستتأثر بتلك العلاقة وما ستؤول إليه الأيام المقبلة! الآن يشعر بقوة مصطنعة لم يتوقعها أبدًا

منها، تلك القسوة التي ظهرت في جملتها لم يسمعها من قبل، كما أن تلك النظرة الصادمة والمنبعثة من عينيها العذبتين لم يرها من ذي قبل.

"هناك جراح لا تلتئم أبدًا، ومهما حاولنا مداواتها أو نسيانها نرانا قد فشلنا، لتتحول تلك الجراح إلى عذابٍ دائمٍ يسكن القلوب".

كانت تلك عبارته ردًا عليها، قالها في حسم وقد بَدَا صوته فيها متأثرًا، كان يشعر بعظام جسده تتألم من عبارتها السابقة لِما استشعره من ورائها من معنى يبدو واضحًا له، وكأنها تودعه، وكأنها تخبره أنما عليهما الافتراق، ما إن جال ذلك الخاطر بعقله، شعر وكأن الحمَّى انتشرت فجأة بكامل جسده، شعور مؤلم جدًّا بدأ يتخلل جوارحه، العرق يغمر جبينه، صدره أصيب بضيق شديد، أنفاسه تكاد لا تخرج من حلقه حتى انتابته غصة شديدة!

أهو يموت؟

سؤال انبلج بعقله سرعان ما تبخر في الهواء، هناك رجفة تحيط بقلبه، وثمة غشاوة بدأت تنتشر في عينيه، وضباب غزا رأسه بالفعل. تمالك نفسه حتى لا يترنح ويسقط أرضًا فجمع قواه ثم قال في أسى واضح:

- لماذا؟ ماذا صنعتُ لكِ؟ لقد كنت دائمًا بالجوار أطمئن عليكِ، وأتابع أخبارك جيدًا، نعم بعدت عنك قليلًا، لكن ليس بإرادتي، كنت مكتوف الأيدي ومكبل الحركة، وأنت تعلمين ذلك جيدًا، وعلى يقين أنه لا يوجد ما يمنعني عنك سوى ظروف حياتي المتوترة دائمًا، فلماذا الآن؟

نظرت في عينيه وهي تتحاشى الضعف أمامهما، تحاول اصطناع

تلك القوة -الواهية- وتحاول دفع نبرتها كي تأخذ شكلًا جديًّا، لتقطع كل السبل أمامه، فأخفضت صوتها بينما كانت تنظر في حذر لزملائهما المنشغلين بأعمالهم وفي توتر تحدثت:

- اسمعني جيدًا يا طارق، أنت شخص قلَّ وجوده في هذا الزمان، شخص احترمته بشدة، وحملتُ داخلي ودًّا كبيرًا له، كنت على يقين أنك مختلف عن بقية الزملاء، هذا من أول يوم رأيتك فيه، ورغم استحالة حدوث أي تقارب روحي بيننا لأسباب أنت تعلمها جيدًا، وجدتني أنجذب إليك بشدة في سرعة أربكتني، هناك شيء مريح مطمئن في وجهك دفعني -بل والحق أقول إنه أجبرني- على احترامك، ومحاولة التودد إليك والتقرب منك، شيء لا أعلم كنهه وماذا يسمى، شيء جعلني أقرب لفتاة خرقاء تخور قواها أمام سيلِ كلامك العذب.. تعلم أني أكبرك بقرابة السبعة أعوام، فكان غريبٌ عليّ أن أشعر بقوة شخصيتك الودودة، وسحر رجولتك المتناهية، وأقف منبهرة أمام نضوجك المنضبط وحيائك المبهر، فغدوت جانبك كتلميذة مراهقة تهيم بمعلمها، وكأنك أنت مَن يكبرني بتلك الأعوام، شيء فشيء بدأت أميل إليك، وأنشغل بك.. هناك شيء أقوى مني ومن محاولاتي لردعه كان يحركني ويدفعني لمخاطرة بسمعتي وبظروفي لرؤيتك والحديث معك والتقرب منك كأي حبيبين.. هل تعلم ما هو؟ إنه قلبي!

قطعت حديثها وعلى وجهها الخلاب ظهرت ملامح الأسى والألم، أمَّا هو، فجعل ينظر إليها بشجن حتى لم يعد يشعر بحدودية المكان ولا الزمان، فقط هناك شعور كان يراوده بدأ بسيطًا ثم أخذ يكبر ويكبر حتى أصبح جليًا واضحًا كقرص الشمس في وسط النهار!

«تريد إخباره أنها المرة الأخيرة التي سيلتقيان فيها».

نعم، هذا شعور توغل داخله أنبأته به جوارحه، ورآه قلبه رؤية العين، فارتفعت دقات قلبه، وهمَّ بقول شيء ما، إلا أنها قاطعته مستطردة في شرود:

- لقد عاد قلبي للحياة من جديد، قلبي الذي تحوَّل لكهف مهجور مظلم، قلبي الذي تحوَّل لصحراء مقفرة جدباء، الآن غدا بستانًا تملأه الزهور والرياحين، ألا تعلم لِم؟ لأنني أحببتك بحق، وشعرت معك بما لم أشعر به منذ سنوات وليالٍ طوال ضنَّت عليَّ بالسعادة، تلك الليالي التي مرت عليَّ ككابوس دائم لا ينقطع، فذبلت روحي، ونضبت الدماء من شرايين حتى أخذ العمر يتفلَّت وينقضي.

وقفتْ لحظة تحاول أن تتمالك مشاعرها، ثم نظرت له بحنان جارف وأردفت:

- ظهورك في حياتي قلب موازينها رأسًا على عقب، فعدت أهتم بأنوثتي وجمالي، أهتم بزينتي وشكلي، ومشاعري وقلبي من جديد، كنت قد فقدت الأمل، وكنت أنت يا طارق الأمل الغائب.. أمل كان صعب المنال، لكنه أخيرًا تحقق مع ظهورك.. ولكن لِمَ الآن؟ تبًا لهذه الحياة! وكأن الدنيا تُخرِج لي لسانها وتقول لي: موتي كمدًا. أنت لا تدرك قيمه نفسك، ولا تدرك ما تمثله لي، فكم أحببتك، وكم وددت قضاء ما تبقى لي من عمر جوارك!

صمتت لحظة فجاء صوتها أكثر حزنًا وألمًا وهي تكمل عبارتها في استسلام:

- ولكنه للأسف حبٌّ مُحرَّم!

نظر إليها في ارتياع وكأنما صعقته هذه الحقيقة، وسحقت ما تبقى

لديه من تماسك، ورغم إيمانه التام بما قالته وبعبارتها هذه، لكنه ردد كلمتيها الأخيرتين في حزن:

- حبٌّ مُحرَّم؟

أخفضت صوتها وهي تحاول كتم مشاعرها ثم قالت في شرود:

- نعم يا طارق، مُحرَّم، ولِمَ الاندهاش الآن وكأنك تعرف هذا لأول مرة؟! أنسيت ما أنا فيه؟ أنسيت ما أنت فيه؟

قال في عناد وبصوت مرتفع:

- نعم أعرف، وقد كنت لا أكترث، وقد أخبرتك من قبل عن ظروفي وحياتي الزاخرة بالتوتر.

قالت في لهجة عصبيه نتيجة ارتفاع نبرته:

- طارق، احذر، فقد ينتبه البعض لنا.

لم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل أو يقول، بالفعل هذه هي الحقيقة التي كان يعلمها جيدًا وظل يتناساها لعدة أشهر، لكنها الآن قد صدمته بالفعل - أو بالأحرى - أفاقته من حلم كان يظنه جميلًا. حاول صنع ابتسامة على وجهه ينفث بها عن توتره الشديد، لكنه فشل في ذلك، فخرجت رغمًا عنه مريرة وشاحبة.

الحقيقة أن الصراع الدائر داخله كان طاحنًا، حرب شعواء تدور في أعماقه، حرب متساوية القوى والبقاء فيها للأقوى، كان صراعًا بين الاحتياج واللهفة، يقابلهما ضمير يقظ وغد مملوء بالحُجب، لديه حياة أخرى وطريق آخر، كفتان يحيا بينهما ولا يدري أيهما سترجح!

تذكَّر طفلته الحسناء التي تشبهه شكلًا وطبعًا، تذكَّر رقتها الحالمة لتمر صورتها سريعًا بمخيلته فقال في سخط:

- صدقتِ، تبًا لتلك الحياة!

لم يتمالك كبح عواطفه وهو يطلق تلك العبارة، فشرد بنظره نحو مجهول وأردف قائلًا:

- أتساءل دائمًا: لماذا تزخر حياتنا بالابتلاءات الصادمة فنخرج من ابتلاء لنصطدم بآخر؟ أراها تعاندني وتسخر مني معلنة انتصارها الساحق عليَّ.

تجمعت في عينيه بعض الدمعات جاهد في السيطرة عليها، لكنها تهاوت منه دون شعور. أما هي، فشرعت تتابعه في اهتمام، تنصت لكل حرف يقوله، تهيم بكل التفاتة تصدر منه، تريد ملء عينيها بوجهه، وتروي عطشها بحديثه، وما إن رأت دموعه تتهاوى، أقدمت على عمل به جرأة شديدة، أمسكت يده دون وعي، ثم وبرفق دفعته ليتنحى جانبًا حتى يتوارى من أمام أعين زملائهم!

لطالما شعرت أنه ابن لها، ولكم ودَّت لو جذبته نحوها وألقته بين ذراعيها، حدَّثت نفسها بتلك العبارة وهي ترى دموعه الصامتة تُذرف، فلم تكن لتتمالك نفسها هي الأخرى فانسابت دموعها في هدوء. مسحت دموعها سريعًا وهي تقول في إشفاق:

- هوِّن عليك ولا تجعل الأمر صعبًا هكذا.. هل تعتقد للحظة أنه أمر سهل يمكن أن يمر عليَّ مرور الكرام؟ لقد حمدت الله كثيرًا أنني عرفتك دون غيرك، أبدًا ما رأيتك يومًا تستغل ضعفي، ولم أعهدك أيضًا تخون عهدك لي بأنك لن تؤذيني في مشاعري، دائمًا ما كنت أستمد

طاقاتي وثباتي منك.

توقفت لثوانٍ تمسح دموعها، وهمَّت بدفع أناملها لمسح دموعه، فترددت للحظة خوفًا ممن حولهما، غير أن حنينها إليه سبقها، فأخذت تمسح دموعه برفق ثم ابتسمت قائلة في مزاح:

- هيا أفِق قبل أن تصبح سيرتنا مرتعًا لذوي النفوس الحاقدة، ومادة خصبة تتناقلها الألسن، ولربما تجدنا متصدِّرَيْن لعناوين الصحف باكرًا!

ابتسم رغمًا عنه ثم تنهد بقوة وبدأ يتحدث:

- لا أدَّعي الطُهر، وإنني أبعد من أن أكون واعظًا؛ فلست منزَّهًا عن الخطأ، فقط ما تبقى لديَّ من فتات وازع ديني هو ما يحركني للتغلب على آثامي.. هل تعلمين، كثيرًا ما قررت قطع علاقتنا، لا سيما حينما أتذكر ظروفك وحياتك، حياتك كأم وزوجة، وكثيرًا ما عزمت أمري واتخذت القرار بالفعل للقيام بذلك، إلا إنني أعود من جديد.

وضع يده في جيب بنطاله وعاد بها حاملة ظرفًا متوسطًا مده إليها، أخذته منه وفضَّته سريعًا لتُخرج ورقه مطوية قامت بفردها وبدأت تقرأ ما بها، مرت عيناها سريعًا على محتواها وفهمت ما أفضت عنه.

«هل قدمتَ طلبًا لنقلك؟!»

قالتها في اندهاش وتوتر، فأومأ برأسه، ثم قال بنبرة حازمة:

- لا يوجد حلٌّ بديل؛ فمهما احترزنا وتوخينا الحذر لن نأمن أبدًا السلامة بإشعال عود ثقاب داخل محطة وقود، وهكذا يبدو حالنا، فلا آمن مكر الشيطان ولا مكر نفسي طالما كنت قريبًا منك وبجوارك، فأثرت الابتعاد، وهذه نتيجة فعلتي، لقد تم نقلي لخارج حدود المدينة

وعليَّ التنفيذ من غد.

شعرتْ بتوترٍ أصاب حلقها بغُصة، ولسانها بالصمت، وكيانها بالجمود، ومشاعرها بالصدمة، فلم تتفوه بكلمة واحدة، همَّت بقول شيء ما فأسكتها بإشارة من يده، ثم أضاف في حسم:

- لم آتِ اليوم لفتح جرح عميق كما تخيلتِ، إنما جئت من أجل وداعك، وداع رقيق بلا تردد أو محاسبة، وداعٌ مبنيٌّ على المصارحة والمكاشفة، لقد قضيت معك أوقاتًا رائعة سأجاهد حقًّا لنسيانها، وليتني أستطيع! سأرحل الآن وبقلبي جرح غائر أسأل الله أن يداويه وأن يغفر لي، سأرحل بلا عودة داعيًا الله لك بالتوفيق في حياتك.. علامَ تبكين الآن؟ كان هذا سيحدث عاجلًا أم آجلًا.

نظر إليها نظرة أخيرة وعيناه مغرورقة بالدموع، تركها وغادر المكان سريعًا لتعود دموعها من جديد تنهمل.. وتنهمل.

كريستينا

اعتـدت رؤيتهـا بطريقـي كل صبـاح أثنـاء فتـرة الدراسـة، أختلـس منهـا النظـرات، وأسـر لنفسـي بقـول: لمـاذا لا تخلـع عويناتهـا الطبيـة؟ مؤكـد أنهـا سـتغدو أكثـر جمـالًا. ظلـت طـوال فتـرة الثانويـة والجامعـة ترتـدي موديـلات أراهـا تحجـب جمـال عينيهـا غيـر المعتـاد، شـعوري آنـذاك لـم أكتشـف ماهيتـه؛ هـل مراهقـة هـي، أم نبـت بقلبـي شـيء تجاههـا؟! أضبـط ميعـاد نزولـي قبـل مرورهـا مـن شـارعنا بعشـر دقائـق كاملـة، فقـط لأقـف متواريًـا على«قمـة» الشـارع؛ حتـى أنعـم بتلـك اللحظـات التـي أمنـح نفسـي فيهـا حـق التطلـع لعينيهـا مـن خلـف نظارتهـا الطبيـة، تمـر مـن أمامـي فتتبعثـر كل جوارحـي وتختلـط، وأقـع مـا بيـن مطرقـة الإقـدام والتشـجع وفتـح بـاب للتحـدث معهـا بـأي حجـة، وسـندان عاقبـة البـوح بمشـاعري لهـا ومـا قـد يترتـب عليـه مـن قيامـة قـد تشـعل فتيـل الفتنـة بحيِّنـا. لـم أهتـم بصديقتيهـا اللتيـن يلازمانهـا كل يـوم، والحقيقـة أننـي لـم أكـن أراهمـا، لقـد نبتـت بقلبـي زرعـة حـبٍ خضَّرتـه وغيـرت مـن ملامحـه، ويـوم وراء يـوم، كان الخضَـار يمتـد، والنبتـة تكبـر وتكبـر. لـم أتخلَّـف يومًـا عـن ميعـادي ووقفتـي الحييـة مـن أجلهـا ومـن أجـل رؤيتهـا، مـاذا فعلـت بـي؟ ومـاذا صنعـت بقلبـي؟

يتملكني حين رؤيتها شعور عجيب يتعاظم، فيبدأ بدقٍّ في قلبي، وتسارعٍ لأنفاسي، ونفورٍ لمنابت شعري وكأن يدًا باردة لمست صدري العاري، غير أنها حقًّا يد برد وسلام على قلبي. كنت على يقين أنها تعلم أنني أنتظرها هي رغم طول صمتي وحيائي من الحديث معها، ولم أشعر بيوم أنها تولينني ولو قسطًا من نفس الشعور، فالقيود فولاذية، والعادات قاتلة، ولكن من له سلطان على قلبه؟ لقد وقعت في قلبي فصرت هائمًا بها، متيمًا برؤيتها التي أدمنتها كل صباح، وكم كنت حزينًا يوم الجمعة والإجازة لأنني لن أراها فيه، لكن رُبَّ صدفةٍ أجمل من ألف ميعادٍ، وأجملها كان في أول صدفة، حين كنت أسرع خطواتي مندفعًا من باب منزلنا لألحق ميعاد التمرين، وبينما كنت أعبر الباب، كدت أرتطم بها وهي تسرع خطاها أيضًا، كاد الارتطام أن يكون وشيكًا لولا سرعة استجابتي و«فرملة» جسدي فجأة، إلا أن هذا لم يمنع احتكاك جزء من صدري بكتفها، فتسمرت لتكون أول مرة أتكلم معها في شكل اعتذارٍ وأسف، نظرت نحوي بعصبية غريبة وأخبرتني ساخرة أن أرتدي نظارة حتى لا أتسبب في كوارث للناس.

هجوم غريب لم أتوقعه، وصدام أوشك أن يقتل مشاعري ويوئدها في مهدها، لكن فوح عطرها المميز - عرفت لاحقًا أن اسمه شانيل - أنساني هذا، فكررت أسفي واعتذاري وتركتها على الفور. لا أعلم لماذا زاد تعلقي بها، وكأن صوتًا يهمس بأذني: إنها تحبك، ولكنها تقاوم وتُظهر عكس ما تُبطن، ولقد أحببت هذه الفكرة جدًّا، فأنعشت قلبي وأعطتها قبلة الحياة. لم يكن هذا صدامنا الأول، فبعد هذا الموقف بعامين، ونحن في الجامعة، وقد جمعنا القدر في كلية واحدة مع اختلاف الأقسام، كنت أنتظر «الترام» للذهاب للجامعة، فوجدتها تخترق رصيف المحطة مع صديقتيها المقربتين، فرأيتهما ينظران لي في تحفز شديد أعلم سببه، وحين مرت من أمامي تعمدت أن تنظر لعيني مباشرة، ولمحت ترددًا ما،

ولكنها عزمت أمرها ولم تمهلني كثيرًا للاحتمالات، فقامت بفعل صادم لم أتخيله قط، لقد بصقت على الأرض ثم أدارت رأسها عني وسط تقطيبٍ لجبيني.

مرت ثلاث ليال أبت عيناي فيهم النوم سوى بضع ساعات متفرقة، شعرت أنني محمومٌ، وثمة لوثة أصابت قلبي قبل عقلي، أتساءل: لماذا؟ عيناها ترددت وكأنها مجبرة على هذا الفعل، نعم، لقد صدق حدسي في صديقتيها، هما من أقنعاها بذلك، ولكن لماذا أيضًا؟! انصرمت الأيام الثلاثة وبالرابع وبينما كنت في حرم الكلية أتناقش مع زميلة في موضوع يخص المنهج، تخللت أنفي رائحة عطرها، فتوقفت هنيهة، ثم تابعت مناقشتي وبثغري ابتسامة حزينة، فجأة شعرت بأنامل تربت على كتفي فالتففت بكامل جسدي بعدما انقبض صدري لأجدها تقف أمامي وبعينيها نظرات اعتذار وحزن واضحيْن، الحق أن الزمن توقف بي وقتها، فنسيت ما جرى وكان، وعاد قلبي من رقاده سريعًا، وتجرع جرعة الماء التي ستحييه بالوقت الذي تحجرت فيه ساقاي، وانقطع الكلام من حلقي. طال صمتي، وامتلأت عيناي بالعتاب والملامة فلم أنتبه لذهاب زميلتي وانشغلت كل حواسي بكريستينا. لماذا لا أبوح لها بما تنطوي عليه نفسي؟ ولماذا لا أخبرها بما أعانيه كل يوم من أفكار أهلكت قلبي وعقلي؟ فهل لأجل اختلاف عقيدتنا عليَّ كسر قلبي؟ وإن أجاز ديني ذلك، فكيف ستواجههم وتقنعهم بي؟ هنا انبلج فجأة سؤال بعقلي: هل تبادلني هي نفس الشعور؟

لم تقوَ وقتها على الكلام، لمحت هذا جيدًا باللحظات التي فرت مسرعة وأنا أنظر إلى زرقة عينيها الآسرة من خلف زجاج نظارتها، ابتسمتُ إليها فتحشرج صوتي قبل أن أقول بأسى: كيف حالك يا كريستينا؟ هزت رأسها في رقة، وابتسمت بدورها في توتر وأجابتني:

أشكر ربنا. تزحزحتُ قليلًا، وتحركت خطوتين حتى نبعد عن وسط الساحة، فتبِعتني في صمت، نظرت إليها في سعادة خفية بينما توترت ملامحها خاصة مع كثرة التفاتاتها، فأخذت أهدئ من توترها فقلت: هل لديك محاضرات اليوم؟ نظرت إليَّ بقوة هذه المرة، ثم قالت في مرارة: حازم، أنا آسفة لما فعلته معك، كنت مضطرة. صمتت لحظة تنهدت فيها ثم استطردت: لكن لن ينفع. وهمَّت بالتحرك، امتدت يدي دون إرادة مني، وتحت أعين الطلاب أمسكت ساعدها وأنا أهتف: كريستينا، توقفي أرجوك.

حين أدارت رأسها نحوي شعرت بانقباضة شديدة بسطت ذراعيها على قلبي واعتصرته عصرًا، لقد رأيت دموعها تنساب، فوددت لو احتضنتها وبكيت معها وصحت فيها وأنا أهز كتفيها: «أنا أحبك». قطعت أفكاري بجملة رفعتني من رقدةِ الموت إلى صحوة الحياة:

«لا أعلم كيف سأتخلص من حبك، ولكنه قدرنا» قالتها وتركتني ومضت فلم أستوقفها هذه المرة، واكتفيت بهذا الغزو الذي احتل قلبي، قلبي الذي وقع أسير حبٍ لملكةٍ تستحق عرشه، وعليَّ الآن أن أواجه مصيري بصدرٍ رحب. مرت الأيام وجمعتني بها صدف كثيرة، تكلمنا على استحياء، ثم انسابت المشاعر وحدها بلا توقف، وكلما انغمستُ في حبها، غرقت هي في حبي، لترتحل بنا الشهور، ويقوى ذلك الرباط الذي يجمعنا، فأصبح متينًا غليظًا يصعب قطعه، أو حرقه، أو اهتراؤه.

انتهت الجامعة بفيض من المشاعر قادر أن يغرق الكون، فانصهرت مشاعرنا، وأصبحت مزيجًا واحدًا صعب استخلاصه أو فصله عن بعضه البعض. زادت اللقاءات، ومر عامان آخران، حتى جاء ذلك اليوم. كنا قد اتفقنا على تناول الغداء سويًا ثم الجلوس في مكان هادئ، لوهلة

حسبت أنني أتطلع لوجه ملاكٍ هبط من السماء ودفعه القدر بطريقي. ارتدت فستانًا فيروزيًا به نقوشات ذهبية اللون، و«صندلًا» بنفس لون النقوشات، بينما جمَّلت وجهها بشكل هادئ للغاية ومثالي، فاحمرَّ أنفها الدقيق، وأضاءت زرقة عينيها المَشرِقتين، ولم تعد بحاجة للعوينات بعد العملية التي أقنعتها بها، ولمع ثغرها تمامًا كما تخيل «عنترة» ابتسامة ثغر عبلة. عند المغيب، وقبل زوال الشمس، أخرجت من جيبي سلسلة من الذهب يتوسطها مفتاح الحياة وقدمتها إليها، فرأيت لمعة عينيها ورجفة شفتيها القرمزيتين، وبلا تفكير للحظة، وبكل حب، أولتني ظهرها، ورفعت شعرها يسيرًا، فحاوطت يدي عنقها من بعيد، وتركت مفتاح الحياة يرتاح على صَدرها، وقفلت السلسلة، التفتت بجذعها وتلاقت أعيننا ثم اقتربت ولثمت خدي على استحياء.

كانت علاقتنا بداية لطريق وعرةٍ ورفض تام من الجهتين، بدأت بنصائح، وانتهت بالتهديد المباشر، فجاءني تهديد من عندي، وآخر من عندها وصل إليها، فأبينا إلا وأن نستمر، فكانت الشرارة التي عظمت نيرانها وكادت تردينا قتلى لولا تدخل العناية الإلهية.

وها أنا أرقد الآن بالمشفى بعدما أُطلقت علينا النيران من جهة غير معلومة ولكنها تخص أحدنا ولا شك، فقد اخترقت الرصاصة صدري وشاء الله ألا تقتلني، وعلمت أن كريستينا ترقد بالغرفة التي تجاورني بعدما اخترقت الرصاصة ذراعها ومرقت باللحم فقط، وحتى نتماثل للشفاء، ونعود إلى حياتنا سيظل السؤال عالقًا برأسي: هل سيستمر حبنا، أم ثمة قوة غاشمة ستفرقنا عنوة؟

حوراء حلب

في فزع شديد وهولٍ انتابني، أنظر فيما حولي؛ الأشلاء متناثرة هنا وهناك، الدماء تلطخ كل شيء بلونٍ قانٍ صُبغت به تلك اللوحة التي لا يكفي ملء البحر مدادًا لوصفها، أقف وقد دُكّت منازلنا فوق رؤوسنا، أتلفَّت يُمنةً ويُسرة في خوفٍ يقهر جسدي، صوت انهيارات الأرض يصمُّ الآذان، أسمع صوت النار تأكل كل شيء في طقطقةٍ تحرق القلوب، أكاد أرى تلك الوجوه تزينها ابتسامة رغم كل شيء وقد حُفرت عليها أقسى ملامح الأسى، أشعر بتلك الحُلوق وقد غُصّت بما غُصّ به حلْقِي، ولكن ما هذا الثبات العجيب؟!

أقطع خطوات حائرة وقد مادت الأرض بي لا أعلم أين أسير، أعبر بقدميّ فوق تلك الجُثث المُتفحمة، وبين الحُطام المُحترق. فجأة ارتفع صوت هدير المقاتلات التي تقطع عباب السماء وكأنها تتثبّت من إنهاء المهمة الدامية بنجاح، أرفع رأسي نحوهم في رعب، عظامي تنخر، وقدماي ترتعدان، وأسناني تصطك، أضع كفيَّ على وجهي أخفي عينيّ عنهم وكأنني بفعلتي تلك يمكنني الاختفاء عن مرمى نيرانهم العطشى لإراقةِ الدماء، شعرت برحيلهم ولم آمن ألا يعودوا مُجددًا.

أين أذهب؟

لا أدري!

أخفضت عيني المليئةَ بالدموع متذكرة تلك اللحظات الماضية، لحظات أُنسٍ كنَّا نحياها وسط بيتنا الدافئ، كنت أركض على الدرجات بيدي دميتي الخمرية وصوت ضحكاتي يملأ بين المشرقين، أهبط سريعًا وألتفت ورائي في فرح عمَّ أجواء دارنا، ومن خلفي أخي الكبير يتقافز مصطنعًا صعوبة اللحاقَ بي فيعرقل حركته قاصدًا ويتعثَّر مازحًا مادًّا يده الحنونة ليمسك بي، بينما أمي بالأسفل تعد مأدبتنا العامرة بخيرات الله، صنوفٌ من الأطباق الشهية اعتادت على صناعتها وإعدادها ظهيرة كل جمعةٍ عقب الصلاة مباشرة، نستدعي جارنا العمَّ«سامر» وأسرته لتجتمع الأسرتان في محبة وأُلفة ألقاها الله بقلوبنا، فهكذا حال الإخوة يشدّوا من بعضهم البعض فيكونوا سندًا وظهرًا وحمايةً لبعضهم، تقفُ أمي وسط أختيَّ الكبيرتين ومعهما «ديمة» و«بيلسان» ابنتا العم سامر ووالدتهما، يقفن جميعًا لتحضير تلك المأدبة، تتهامس الفتيات عن أسرارهن في ضحك خافت، بينما «آسر» أخي يتقاذف الكرةَ في ساحةِ منزلنا مع «معتز» ابن العم سامر في مرحٍ وفرح يتعالى فيه صوتهما. كانت أمي تحدث السيدة «حسناء» زوج العم سامر، تلفُّ طرحتها الفضفاضة بتلك الطريقة المميزة، ثم تضع الملعقة الكبيرة داخل الحساء، ترفعها محمَّلة بالقليل وتقرِّبها نحو طرف لسانها بينما أعين الفتيات تترقب ملامحها، تتذوق أمي الحساء فتغمض عينيها وتبتسم حتى تظهر هاتان الغمَّازتان بوجنتيها الورديتين دليل الرضاء التام عن طبختها، فتفتحُ عينيها تنظر للوجوه المتطلعة والمترقبة، ثم تقول وهي تشير بيدها علامة الجودة: «إمممممم، ما أحلاه من مذاق شهي!»فترتفع ضحكات البنات ويعاودن المرح والحديث بشكلٍ صاخبٍ ويبدأنَ في تجهيز المائدة، كنّا نمرح

ونلهو في حماسٍ وسعادة بحق حتى أتانا أبي وجارنا الصديق الصدوق يتحدثان وفي يد والدي الجريدة التي اعتاد مطالعتها يوميًا، أراه من بعيدٍ وعلى ثغره ابتسامة طيبة رحبة تسع العالم بأسره، فهكذا كان أبي دائمًا كثير الضحك والمزاح.

هبطتُ درجات السلم الداخلي في فرحةٍ بينما «عمَّار» أخي يطاردني في اللحظة التي رأيت فيها والدي والعم سامر يتقدمان نحونا، وأمي تلتف وبيدها صحن الحساء، والبنات وهن ينظمن المائدة، وآسر يمسك بالكرة استعدادًا لقذفها نحو معتز. فجأة! سمعنا أصواتًا صاخبة وطنينًا يهزُّ الجدران، لم أستطع أن أميز شيئًا سوى صوت قوي لانشقاق الهواء، سمعته وأنا أركضُ في توترٍ نحو والدي الذي حملت ملامح وجهه الذُّعر والهلع، بينما كان يشير إليّ بإشارات تحذيرية وهو يركض نحوي رافعًا رأسه نحو السماء ومن ثم يخفضها وكأنه يريد حمايتي من شيء مجهول. تسمَّرتُ مكاني لا أقوى على الحراك أو الحديث، التفتُّ خلفي لأجد عمّار أخي الكبير يعدو نحوي ويطير ليحميني بجسده وسط صراخ وعويل لم أفهم سببه.

فجأة أصاب ذلك الصاروخ الأرض ما بين أخي آسر وأبي لأراهما بعيني من تحت جسد أخي الذي يحميني وهما يطيران بفعل موجة التضاغط ثمَّ يسقطان غريقين في دمائهما بلا حراك، وضعت يدي على أذني وأغمضت عينيّ وأنا أسمع صراخ أمي وصراخ البنات من حولي، بينما عمار الذي حماني بجسده سمعته يتلو الشهادة التي تعلمتُ معناها القلبي والروحي في الصف الخامس الابتدائي كما أخبرتني مدرستي السيدة خديجة. حدث الانفجار الثاني ولم أسمع بعدها شيئًا آخر، فقط أصوات رهيبة جاءت من حيِّنا وكأن قيامتنا قد حان وقتها، نعم، فاليوم هو الجمعة!

عندما فتحت عينيّ وجدتني أقفُ حائرة مشدوهة، خائفة ومرتعدة، الآن لا أعلم أين أذهب؛ الأجسادِ افتُرشت بها الطرقات، وجوه الأطفال الصغار بها سحجات وكدمات وتورُّمات، الرجال امتلأت أجسادهم بالجروح الغائرة، والنساء قد تعرّت من ثيابهن من أثر القصف الدامي، الجدران تصدعت وانهارت، والشرفات تهدَّمت، والمآذن تحطَّمت، والأسواق أُبيدت، والناس قد قُتلوا غدرًا. عدت بظهري للوراء وتحركت بلا هدى فرأيت جسدًا مُسجَّى هناك.. يا إلهي! من هذا؟!

أعرف هذه اليد، نعم أعرفها، ولطالما رأيتها تمسِكُ بتلك الجريدة.

يا ويلتي! إنها يد أبي.

جثوت على ركبتي وحاولت رفع تلك الأتربة من عليه فلم أشعر بيدي، دموعي بدأت تنساب ساخنة تحرق خدّي، يا إله الكون سلِّم، نظرت أمامي أتساءل: أهذا بيتنا؟ وقفت وقد بدأتُ أعي الأمر، نعم، هذه هي دارنا الدافئة الرحبة التي كانت تسع الجيران. وما هذا أيضًا؟!

سلِّم يا إلهي! هذه الكرة كرة آسر، اقتربت أنظر لتلك الأجساد من حولي فرأيته هناك منكفأً على معتز، كان المسكين يحاول حمايته، أخي الحبيب، أقتلتك يد البطش الغاشمة؟ أخي الحبيب، أراك صامتًا لا تتحرك!

تعالى صوت نشيجي، وضعت يدي على وجهي مُجهشة في بكاء وأنين يُكلِم النفس ويميت الجسد، أنا أحلم، نعم أحلم، ولكن.. ولكن ذلك الخمار هناك بلونه المميز أعرفه جيدًا، هل هذا خمارُ أمي الطيبة؟! نعم، إنه هو. يا الله! رحماك بموطني وأهلي، رحماك بنا. تذكرت أمرًا هامًا! تحركت مسرعةً بين الحطامِ والرُّكام، تفاديت ذلك اللوح الخشبي

الـذي سـقط بعدمـا أكلتـه النيـران لأختـرق سـحب الدخـان أبحـث عنـه، عـن عمّـار، أخـي الحنـون، دُرْت بعينـي فـي أرجـاء المـكان أمسـحُ بهمـا كل ركـن فـي سـرعةٍ حتـى لمحـت قدمـه، صرخـت بأعلـى صـوت لـديَّ وأنـا أركـض نحـوه وقلبـي محـروق عليـه وعلـى عنفوانـه الـذي هزمـه المـوت، توقفـت أمامـه مباشـرة وصوتـه مـا زال يـرن فـي أذنـي وهـو يلقـي علـى مسـامعي الشـهادة قائـلًا: «انطقيهـا ورائـي يـا حـوراء»، مـددت يـدي فـي محاولـة جديـدة لرفـع جـزء مـن المائـدة التـي سـقطت فوقـه، فلـم أشـعر بيـدي مـن جديـد! وبينمـا كنـت أعيـد يـدي صُعقـت مـن هـول مـا رأيـت حتـى أنّـي ارتـددت للخلـف فـي خـوف، وفـي حـذرٍ بـدأت الاقتـراب بعدمـا تجمـدت الدمـوع علـى وجنتـيّ وأنـا أتطلـع لتلـك الكـف الرقيقـة التـي ظهـرت مـن تحـت جسـدِ عمَّـار قابضـة علـى تلـك الدميـة.. دميتـي الخمريـة!

الضَّعف

دفعَت بَاب حجرتها فى توترٍ ملحوظ، بينما أخذت الأفكار تعصِف برأسها وكِيانها فى قوةٍ، كان ذلك الأمر يؤرقها ويعكِّر صفو حياتها، لماذا يدفعونها لذلك؟ لماذا يريدونها أن تخلع عن رأسها غِطاءه؟ كانت تدرك أنها جميلة الجميلات، بل فاتنة الفاتنات، قليلات هن مَن يحملن جمالها.

تحَركت فى هدوءٍ نحو مرآتها العريضَة التى تزين أحد جدرَان حجرتها، وقفت أمَامها تنظر لوجهها المنير، ولشعرهَا البني الجذَّاب، كانت هنَاك ثمة علاقة قوية تربط بينهما بالفعل، وهذا أكثر ما يميزها، كان شعرًا بنيًّا ناعمًا لامعًا يَخطف الأبصَار، يُلهج القلوب ويَأسر الوجدَان، كان مخمليًا كثيفًا طويلًا، ينحدر مُنسابًا على كتفيها ليملأ ذلك الفراغ بينهمَا ليصل حتى خصرَها في نعومة وانسيابية كأمواج البحر الهائمة. أخذت تدَاعب خصلات شعرها الناعمة في ثقةٍ بالغة، تنظر لنفسها عبر المرآة، فتارة تعقصه وهى تمسك به بإحدى يديها من منتصف رأسها، وتارة تجوسُ خلاله بأناملها الرقيقة فترفعه لأعلى ثم تتركه يتفلَّت من بين أناملها فتتساقط خصلاته بهدوء وبطء وهي تُحرك رأسها رافعة أحد

حاجبيها الساحرين في نظرة تملؤها الثقة والامتنان.

كانت فاتنة حقًا بوجهها النديّ وعينيها الملهمتَين اللتين تزينهما أهدابٌ طويلة ساحرة، فإذا نظَرتْ لأحدهم برِقتها المعهودة سقط أسيرًا في حبها وعشقها. كانت في حيرة من أمرها بالفعل؛ فعندما قررت ارتدَاء الحجَاب لم يجبرها أحد على ارتدائه، ربما كان موت إحدى صديقاتها المقربات السبب وراء ارتدائه، ولكن الآن، وبعد مرور فترة ليست طويلة، لم تكن لتتوقع مطلقًا أن تسمع عبَارات أخرى لا تساعدها على الثبات والاستمرار، بل كانت تحثها لخلعه عنها.

كانت صديقاتها اللواتى لا يحملن نصف قدر جمالها يخبرنها دائمًا أنها ستصبح أكثر فتنة وجمالًا إن قامت بخلعه، وهكذا الحال أيضًا في مقر عملها، كانت تسمع تلك العبَارات والكلمَات فأصبح الأمر يزعجها ويفت في عضدها، ظلت هكذا فترة لا بأس بها حتى كانت المفاجأة التي حدثت لها بالأمس! فذلك الشاب الوسيم-خطيبها- الذي اختارته دون غيره، لمكانته الاجتماعية المرموقة، وعائلته المشهورة، وثرائه، قام هو الآخر بإلقاء نفس الكلمات والعبارات على مسامعها، فأخبرها أنه يريد أن يتبَاهى بها وسط أقاربه وأصدقائه وذلك الوسط الذى يحيا فيه، بل زاد على ذلك أنه أخبرها بألا تمنع أنوثتها وجمالها عن الآخرين، فرِقَّتها وجمالها ورونق شعرها أثمن من أن تحجبهم عن أعين الناس.

تلك الكلمات التي ألقاها على مسامعها أثَّرت بشكلٍ كبير في فكرها، فظلت بين نارين في هذه الليلة، استلقت على ظهرها وقد أبى النوم أن يداعب جفنيها، فأخذت تتذكر تلك اللحظة التى ارتدت فيها الحجاب، وقامت باستبدال تلك الملابس الضيقة والقصيرة بأخرى فضفاضة.

تذكرت كلمات صديقاتها

حديث زميلاتها

عبارات أقاربها

و .. ورغبات خطيبها

نهضت وظلت تحدق في المرآة، ثم أخذت تضع بعض المساحيق بعناية فائقة، وتصفف شعرها بنفس العنَاية لتصبح صورة خلابة كإحدى الملكات أو الأميرات، ثم توجهت نحو خزانة ملابسها بعد أن أخذت نصائحهم على محملِ الجدية، وقررت أن تنفذ رغبتها بإرادتها الحرة.

فتحت خزانة ملابسها، وجذَبت ذلك الصندوق في عنَاية بالغة فارتسمت على ثغرها ابتسامة جذل، ثم قالت بصوتٍ خفيض: ولِمَ لا؟ قامت باستخراج رداءٍ مميزٍ قد أهدتها إياه صديقتها قبل وفاتها تشجعيًا لها، ثم ارتدته سريعًا، وعندما التفتت إلى المرآة مرة أخرى، شعرت براحة تامة تخللت صدرها، وهدوءٍ سيطر على قلبها، ولم ترَ من ملامح وجهها أى شىء غير لمعة عينيها!

غياب

ملَـك! هـل يعقـل هـذا؟ لالا، هـذه ليسـت شـوارد أوهـام، أنـا أعـي تمامًـا مـا أقـول، لا، ليسـت تخاريـف العَجـز، هـي ملـك ولا شـك، إن لـم تُصـدق عينـي رؤيتهـا، فالرابـض بصـدري يصـدق، لـم أنـسَ تلـك الحيويـة بعينيهـا مهمـا تقـدَّم بهـا العمـر، حيويـة تعبـث بقلبـي لتجعلـه تـارة يمـوت، وأخـرى تبعثـه للحيـاة، كأنمـا ميعـاد ميـلاده وقيامتـه يأتيـان بلحظـةٍ واحـدة، تُطلـق فيـه ألـف شـحنة كهربيـة فيرتجـف، وينتفـض، ويسـتعذب الألـم، لكنـه يـذوب عشـقًا فـي هـذه الحالـة، ربمـا لـن يسـتطيع غيـري التعـرف عليهـا بعـد تلـك السـنين المنصرمـة، لكـن قلبـي الهائـم اسـتطاع، إن هـي إلا جـزءٌ مـن اللحظـة تذكَّـرت فيهـا الماضـي حيـن كانـت تدَّخـر كل نظراتهـا لـي فينتفـض قلبـي ويميـل كغصـن يحمـل ثمـارًا ناضجـة، ويهفـو ناحيتهـا كمـا تفعـل الريـح بالشـذى. هـي ملـك، مَـن ملكـت فـؤادي وغلَّقـت عليـه أبـواب الفتنـة، وهـي مـنَ أبعـدت عنـه قلوبًـا غـادرة قالـت لـه يومًـا: هِئـتُ لـك. مـا أجمـل نسـيم الصبـاح إذ تعطَّـر مـن عبقهـا! ومـا أعـذب المـاء حيـن يغـدو نميـرًا إن غمسـت فيـه عقلـة مـن بنانهـا! ومـا أتفـه نـور الشـمس أمـام ثغرهـا المفتـر عـن ابتسـامة مشـرقة! تحدونـي ذكريـات كثيـرة تمـر بسـرعة البـرق داخـل عقلـي الهـرِم، لكنـي لا أريـد أن أفـوِّت الفرصـة، سـألحق بهـا، نعـم، سـأترك هـذا الكرسـي

وهـذه الجلسـة وأتحـرك مسـرعًا نحوهـا، سـأقطع المسـافات كمـا فعلتهـا مـن قبـل، فقـط حتـى أسـالها لمـاذا ذهبـتِ وتركتنـي وحيـدًا فـي هـذا العالـم لأعاني ويـلات الوحـدة، وقسـوة ليالـيَّ التـي لا تنجلـي، ومـرارة العجـز والكبـر، سـأخبرها أنَّ أطفالنـا قـد نضجـوا وكبـروا وصـار لهـم أبنـاء فشـغلتهم الحيـاة، تركونـي، لكنـي سـامحتهم كمـا سـامحتك، سـأخبرها عـن رحيـل جارتنـا «فريـدة»، وأصـف لهـا حـال قطتهـا التـي ظلـت تنشـب قبرهـا وهـي تمـوء كأم ثكلـى، وتظـل تنـوح كل يـوم وهـي تقـف أمـام بـاب منزلهـا حتـى جـاء ذلـك الصبـاح فوجدناهـا بـلا حـراك؛ لـم تتحمـل فقدانهـا، فذهبـت إليهـا، ملعونـة مـرارة الوحـدة.

لـم أر ملـك منـذ تزوجـت مـن ابـن خالتهـا، تزوجتـه وتركتنـي و.. كيـف تزوجتـه؟! متـى كان هـذا؟ ربمـا كان قبـل زواجنـا، لا لا، بـل كان بعـد زواجنـا، كنـت قـد أغضبتهـا. أغضبتهـا! وكيـف أفعـل وهـي شـريان حياتـي، ووريـد عاتقـي، وشـهيقي الـذي يمـلأ رئتـي؟ لـم أغضبهـا بيـوم، فلمـاذا ذهبـت وتزوجتـه؟ هـل تزوجتـه؟! لا أدري.. أيـن طـارق؟ هـذا المشـاغب لـم يشـرب اللبـن بعـد.. سـأخبر أمـك عـن هـذا، سـأخبر ملـك أنـك تضـع اللبـن فـي صحـن قطـة جارتنـا فريـدة، سـألحق بهـا وأخبرهـا، ولكـن هـل سـتتذكّرني؟ أطلـت الحديـث وربمـا لا ألحـق بهـا.

نسـيتُ شـيئًا، نعـم، أتذكـر أنـي نسـيت شـيئًا، آاه، نعـم، علـيَّ بالتحـرك سـريعًا وتـرك هـذا الكرسـي لأسـألها لمـاذا ذهبـت، ولمـاذا تركتـ.. هـل ذهبت حقًـا؟ أيـن هـي؟ ملـك.. ملـك، كنـت أود إخبـارك أنـي أحبـك ولـن أسـتطيع تحمُّـل غيابـك، فقـط أردت ذلـك.

سُخرة

رفع عقيرته في تعالٍ وغطرسة اعتاد عليهما، وقف في منأى بعيدًا قدر أمتارٍ ممن يعملون لديه، مرتديًا جلبابًا أبيض من الحرير المُطرَّز بخيوطٍ ذهبية طولية تبدأ من أسفلِ آخر زرٍ بياقةِ الجلباب وتنتهي عند أطرافه، تفوح منه رائحة العود الثمينة النفَّاذة والتي يتعطر بها كل عشر دقائق مُمسكًا بزجاجة كريستالية طُلي جانباها بماء الفِضة، حيث يوجِّه بخَّاخها نحو عنقه باستعلاء ثم يضغط عليه مرتين، ملامحه بدت مربكة؛ إذ امتلأ وجهه بدهاناتٍ نسائية مُستفزَّة، إذ احمرت وجنتاه بمسحوق البودرة كالذي تضعه النساء، وسطعت جبهته تحت وطأة كريم الأساس الذي رمَّمها به، بينما اكتحلت عيناه بشكلٍ بسيط لا يخفَى عن أعين الناظرين، ونُمِص حاجباه بشكل أضفى عليه هالةً من النفور وغرابة الأطوار. حملت عيناه نظراتٍ مشمئزة لهؤلاء العمال، فلم تكن نظرة الاستعباد تخلّت عن رأسه بعد، فأجداده قد استجلبوا تلك العمالة بنظام «الكفالة» بغرض تثقيفهم وتعليمهم وسد احتياجات العمل من أطباء، ومهندسين، ومعلمين، وفنيين، وحرفيين، وبمرور الوقت تحوَّل نظام الكفالة لنظام استعباد، واحتكار، وسُخرة، لذا أخذ يُمطرهم بنظرات الاستخفاف والتهكم.

رفع صوته مشيرًا بيده التي تحمل هاتفًا نقَّالًا قد يكفي ثمنه لسدِّ جوع أسرة من خمسة أفراد شهرًا كاملًا قائلًا:

- هذا آخر إنذار لكم، فبداية من الشهر القادم سترتفع قيمة كفالتكم لتزداد ألفًا وإلّا سأعيدكم إلى بلادكم بخُفيّ حنين.

تنحنح أحد الواقفين قائلًا في انكسار:

- يا سيدي، لنا عائلات ننفق عليها من رواتبنا البسيطة، نتحمل وجع الفراق والغربة من أجل حفنة من الأموال فقط نحتاجها لستر بيوتنا وتعليم أبنائنا، ونحن بالكاد نوفّر البعض منها، فما بالك سيدي لو اجتزأنا منها أيضًا؟

نظر إليه بلا مبالاةٍ قائلًا:

- هذا ليس من شأني.

رد آخر على استحياء:

- سيدي، نحن نتقاضى أجورنا منذ فترة طويلة ولم يزِد هذا الأجر، وطلبنا التحدث إليك مرارًا ولم يحرك هذا ساكنًا، وها نحن نتقبل الأمر رغمًا عنّا، سيدي، ما أحوجنا بالفعل لهذا العمل! ففي رقابنا كومة من اللحم، عليك سيدي بالنظر في طلباتنا لرفع أجورنا.

عكست عيناه نظرة قاسية وهو يخبره في غضبٍ:

- أنتم هنا لخدمتنا، استجلبناكم لتلبوا رغباتنا، فلئن تركنا لكم الحبل على الغارب تفحَّشتم وصرتم عالةً علينا وشوكة في ظهورنا، إياكم وتلك النعرة الكاذبة، فأنتم مجرد خدّام لرغباتنا وأوامرنا، وبعضكم أيضًا يخدم شهواتنا، هل استوعبتم أم أنكم أغبياء؟!

غضب أقدم الواقفين عملًا لديه قائلًا في رفعةٍ وعزة نفس:

- ولكـنّا لسنا عبيدًا.

نظر إليه في استهتارٍ مؤكِدًا:

- بل عبيدٌ أبًا عن جد.

غَلـتْ الدمـاء فـي عروقـهِ وتدفقـت كحمـمٍ فوقـف بصـدرٍ عـارٍ يقـول فـي قـوة غاضبـة:

- بـل جئنـا نتشـلكم مـن جهلكـم التـام، وغبائكـم المُسـتحكم، وأمراضكم المستشـرية.. جئناكـم بعلـمٍ لـم تكونـوا بالغيـه، وبفضـلٍ سـيطوِّق أعناقكـم إلـى يـومٍ تبعثـون، مـا أنتـمً إلا مجموعـة مـن الحمقـى الأثريـاء تظنـون أنّ المـال يصنـع لكُـم تاريخًـا ويسـطِّر لكـم مجـدًا، وتناسـيتم أنكـم تغوصـون فـي ملذاتكـم وشـهواتكم، نحـن لـم ولـن نركـع سـوى للـه.

استشـاط الكفيـل غضبًـا واضطـرم وجهـه غيظًـا فتحـرك مندفعًـا نحـوه، وقـف أمامـه ورفـع يـده وهـوى بهـا سـريعًا ليصفعـه علـى وجهـه صفعـة أشـعرته بالـذل والهـوان، فنسـي حالـه، وتسـاوت الـرؤوس، فهجـم عليـه ولـم يتـرك موطنًـا بجسـده إلّا وتـرك بـه علامـة ستسـتمر معـه حينًـا مـن الدهـر، الأمر الـذي انتهـى بـزج هـذا الأجيـر بالسـجن بعـد تعذيبـه ثـم ترحيلـه وقـد خسـر راتبـه الـذي لـم يكـن يكفيـه لسـد احتياجـات عائلتـه.

مـا أحـوج العَـوَز! ومـا أبشـع المتغطرسـين الجهـلاء! عـاد الكفيـل ليمـارس اسـتعباده وإذلالـه وإخضاعـه لعمّالـه الذيـن اسـتوعبوا الـدرس جيـدًا حفاظًـا علـى لقمـة عيشـهم وكأن شـيئًا لـم يكـن!

زهرتها اليانعة

لـم تلـقِ إليهـن السـمع، ولـم تعطهـن انتباهًـا حيـن أخبرنهـا مـرارًا وحذَّرْنهـا أن تلـك الأنـواع النـادرة مـن الزهـور لا تعيـش لمُجـرد وضعهـا فـي آنيـة، خاصـةً مـع طقـسٍ ومَنـاخٍ مغايـر لأماكـن تواجدهـا، وكفتـاةٍ رقيقـة تشـبه مشـاعرها صنـو المـاء العـذبً، لـم تكـن لتنصـت إليهـن مهمـا حاولـن تثبيـط عزيمتهـا وإثناءهـا عـن تربيتهـا ومراعاتهـا. لـذا، عندمـا نظـرت إلـى زهرتهـا اليانعـة هـشَّ وجههـا وانبسـط بابتسـامة نديَّـة عكسـت ملامـح الرضـا المكنونـة بجوفهـا، تذكَّـرت حديثهـن وهـي تُمعـن النظـر فيهـا بعمـقٍ وسـعادةٍ مُبهجـة بينمـا كانـت تضـع بكفهـا وأناملهـا علـى أوراقهـا بعـض قطـرات المـاء الرقراقـة فـي هـدوءٍ وتناغـم، فانزلقـت القطـرات متسـابقة علـى أوراقهـا البضَّـة لتتـلألأ عليهـا عاكسـة أشـعة الشـمس الذهبيـة، فاتسـعت ابتسـامتها وأُنيـر وجههـا الخـلاب.

كانـت زهرتهـا فريـدة مـن نوعهـا ونـادرة، زهـرة أرجوانيـة اللـون ناصعـة وناضجـة وقويـة، لـم تفـت مـن إصرارهـا وعزيمتهـا تلـك النصائـح التـي كانت تسـمعها مـن صديقاتهـا بـأن نبْتَـةً كتلـك لا تُنبـت زهـرة لمجـرد وضعهـا فـي أصيـصٍ وريِّهـا بالمـاء!

ظلت أيامًا تبحث في شبكة المعلومات الدولية عن تلك الزهرة وكيفية تربيتها وسقايتها، وما هو أفضل مناخ للحفاظ على حياتها، وكانت نتيجة البحث تصبُّ في كلامهن، ولكنهًا لم تتأثر، أيام طوال أخذت ترويها بيدها، وتسقيها بالماء، تحملها بين يدها على مهلٍ وتدفع بها تحت أشعه الشمس المباشرة.. ولم تظهر نبتتها!

صبرت في تحدٍ وعلى أملٍ ويقين، وما إن بدأت التربة البسيطة تتشقَّق لتشهد أول ظهورٍ لها، لم تكن الدنيا لتسع فرحتها حينما بدأت ترى النبتة تظهر من الطين، فأسرعت وأخبرت الجميع عنها، كانت تحدثهن بسعادة منقطعة النظير غير مصدقة، حدَّ أنها كانت تقفز وتدور حول نفسها تعبيرًا عن نجاحها وفرحتها، ظلت تعتني بها يومًا بعد يوم وهي تكبر وتنمو شيئًا فشيئًا حتى صارت زهرةً متفتحة غضة. ارتباطها بزهرتها كان عجيبًا، وكان مبعث غَيرة من حولها أحيانًا، اتخذتها صديقة مقربة ونديمة، بل وأنيستها في يومها. كم تحدثت إليها، وكم أسرَّت إليها بالقول، وكم حكت وهمست إليها عن حبيبها وفارسها! فكانت كمولودها الصغير الذي تعبت في حمله ووضعه، وعانت وسهرت على راحته، لتنتقل إلى مرحلة التلقين والتعليم، كل يوم يمر تزداد بها تعلقًا؛ فتارة تخرجها لتتمتع بأشعة الشمس الدافئة وتخبئها عن يومها، وتارة تواريها عن حبات الشتاء الباردة وأعين المتلصصين.

طفلتها الصغيره بدأت تكبر، وتكبر، وتكبر حتى أتى ذلك اليوم!

لم تستطع إمساك دموعها عندما جاءها حبيبها ليخبرها أن ميعاد سفره قد آن وسيرحل بالقريب ليبدأ كفاحه من أجل المستقبل الذي سيجمع بينهما، بكت كثيرًا وتألمت لأنها ستشتاق إليه، وحين أزف وقت الرحيل وأتى ليودعها، شعر بدموعها الحبيسة، وأن الشعرة التي تمسك مُقلتيها ستنقطع، فشدّ على يدها وهمس إليها ليهتز كيانها وترتجف شفتاها،

ثـم تـرك يدهـا تتفلـت وتسـقط فـي صمـت وأسـرع بخطواتـه، ظلـت تحـدِّق وتنظـر إلـى البـاب كثيـرًا ولا زالـت متماسـكة، حتـى تمزعـت حبـال المقاومـة والسـيطرة علـى مشـاعرها فجـأة، فانفجـرت تبكـي وتهـوي دموعهـا بغـزارة، ثـم لـم تتـردد كثيـرًا، بـل أخـذت قرارهـا وأسـرعت نحـو زهرتهـا ملتاعـة، فانتزعتهـا مـن منبتهـا وأسـرعت بهـا إليـه؛ فلـم يكـن عندهـا أغلـى مـن صغيرتهـا لتعطيـه إياهـا حتـى تُذكِّـره بهـا!

بائعةُ الليمون

لـم يُدهشـني وجودهـا فـي هـذا المـكان وفـي هـذا البـرد القـارس قـدْرَ مـا أدهشـتني تلـك الوقفـة التـي تقفهـا فـي ثبـاتٍ وعـزم وكأنهـا تحولـت لتمثـالٍ مـن الرخـام! كنـتُ أركـضُ فـي سـرعةٍ متوسـطة قاطعًـا ذلـك الطريـق فـي محاولـة بائسـة لاتقـاء حبـات المطـر التـي لفظتهـا السـماء بقـوةٍ وغـزارة، ولأن مظلتـي اليدويـة أصبـح شـكلها كزهـرة عبـاد الشـمس بفعـل الهـواء الـذي ضـرب جوانبهـا، وقـد صـار زجـاج نظارتـي مرتعًـا يتلقـى علـى سـطحهِ أمطـار الشـتاء بكثافـةٍ، أصبحـتْ رؤيتـي مشوشـة.

كنـت عائـدًا مـن عملـي فلمحتُهـا تقـفُ علـى ناصيـة الطريـق فـي إبـاء، ترتـدي سـترة جلديـة كبيـرة متآكلـة وصلـت لأسـفل ركبتيهـا وأخفـتْ معظـم معالـم جسـدها، بينمـا غطـت رأسـها بغطـاءٍ ملحـقٍ بتلـك السـترة، ولـم يظهـر منهـا سـوى كـفٍ ضئيـل يخـرج مـن فوهـة ذراع السـترة ممسـكًا بأنامل مرتعشـة عـدة أكيـاس بلاسـتيكية صغيـرة. وقفـتُ لحظـةً بعـد أن قطعـتُ الطريـق أنظـر لهـا بِعطـفٍ، وتأثـرٍ، وتسـاؤل:

أي ظـروف تلـك التـي دفعـت امـرأة مثلهـا للخـروج فـي هـذا الجـو الصعـب والوقـت المتأخـر نسـبيًا حتـى تتحامـل علـى نفسـها وتقـف تلـك

الوقفة؟! رأيتها بعيني شامخة قابضة بيدها على تلك الأكياس المعبأة ببعض حبات ثمرات الليمون تريد بيعها، وقفتها مؤلمة بحق، تقف فوق ذلك الإفريز متباعدة القدمين يسيرًا بلا سقف يحميها، تنهمل على رأسها أمطار الشتاء فأدنت رأسها أرضًا، تفردُ ذراعها الأيمن على طولهِ وينتهي بأنامل تكاد -تتجمد بردًا- تحمل تلك الأكياس، زفيرها يَخْرج بخارًا تخترقه الأمطار وتبدده سريعًا.

تُرى، كم من طفلٍ لديها؟!

أين زوجها؟!

لم أعلم ماذا أصنعُ، هل أستمرُ في طريقي دون أن أبالي، وأكتفي فقط بمصمصةِ شفتيَّ شفقة عليها، أم أتوجهُ إليها محاولًا مساعدتها؟ جنحتُ إلى ما جال بخاطري، فتوجهتُ نحوها مسرعًا وأنا أخلع قفازي وأضعه بجيب بنطالي لأطبق ورقةً فئة العشر جنيهات مستعدًا لإعطائها إياها بصورةٍ لائقة لا أشعر معها بالخجل، ولا تشعر معها بالشفقة.

«سأشتري كيسًا واحدًا من الليمون بذلك المبلغ.. نعم، هذا هو الحل الأمثل» هكذا حدَّثتُ نفسي...

توجهتُ نحوها لا أعبأ ببلَلِي وبرودتي.. سمعتها تنادي في وهنٍ على بضاعتها.. تناجيها في وحدتها، يمر البعض من أمامها لا ينظرون إليها، وكأنها طيف غير مرئي!

لم تُمكِّنني ظلمة الليل وعدسات نظارتي المبللة من تبين ملامحها ولا تلك النظرة المنكسرة التي تبدو واضحة في انحناءةِ رأسها على ذلك النحو.

تقدمتُ خطوتين، ثم سألتُها بفمٍ مرتعش ومطرٍ غمر جميع جسدي:

- كم ثمن الكيس الواحد؟

في وهن وانكسار استشعرته، ودون أن ترفع رأسها أجابتني:

- ثلاثة جنيهات.

وددتُ مداعبتها علَّها تستفيق أو حتى تبتسم لي فقلتُ لها:

- إذن أعطِيني ليمونة واحدة!

لم ترد على مداعبتي ولم تبتسم!!

كنت أحاول عبثًا رؤية وجهها بوضوحٍ، ولكن دون جدوى..

مددت يدي نحوها بالمبلغ؛ فأعطتني كيسًا دون أن ترفع رأسها! لم أنتظر منها ردًّا، فتحركتُ سريعًا مبتعدًا عنها.

كادت الدهشة تطيح بي عندما نادتني وهي تهرولُ نحوي وتمُد يدها قائلة:

- عماه.. عماه، لقد نسيت أن تأخذ بقية المبلغ!

«عماه»!!

لم أستطع كبحَ دموعي طويلًا وأنا أفطنُ للحقيقة بعد رؤية وجهها الخلاب، وملامحها الرقيقة، وطفولتها البريئة التي ظهرت للوهلة الأولى، فأخيرًا رأيتُ ابتسامتها المشرقة التي تناسيت معها شعوري بالبرودة، حتى إنني تبسمتُ إليها و.. وانصرفت.

ذات يوم

وقفَتْ تنظُرُ فيما حولَها في دهشةٍ وحيرةٍ مِن أمرِها، كيفَ جَاءت إلى هذا المكانِ؟ وكيفَ لم تشعر بخطواتِها؟ وكأنَّ بوصلةٌ إلهيةٌ تَقبع بأُم رأسها تَدفَع وتزج بها لِتلِج هذا الطريق، ولعل بحثَها عنه أثناها عن إدراك أيِّ المسالك تسلك، وأيِّ الدروب تقطع! العجيب أنَّها كانَت مبتهجةً وعلى وجهِها لاحَت ابتسامةٌ فاتنةٌ لم يمنع تفلُّتَ ضيَّها هذا الغطاء الشفاف الذي وارَت مِن تحتِهِ وجهها.

هناك شيء بقلبها يخبرُها أنَّه هنا، شيء لا تعرِف كُنْهَه ومصدرُه، ولكنَّها تعلم يقينًا أنَّه هنا، في مكانٍ ما حولَها!

لم يُخطِئ حدْسُها بالفعلِ، فبينما كانَتْ تُحرِّكُ عينيها هنا وهناكَ إذ بها تشعرُ برجفةٍ حلَّت على قلبِها، فنظرَتْ إلى جانبها لتلمحه قبالتَها على مرمى البصر يجلِسُ في سكينةٍ بالقربِ مِنْ حافَّةِ النهرِ، تحيطُ بهِ المرابعُ المخضرَّةُ، وتعلوهُ الطيور في جوِ السماءِ.

اقتربَتْ عدةَ خطوات منهُ دونَ أن يلاحِظ تقدُمَها، لتعلق عينَيْهِ بحركةِ أحدِ الطيورِ الذي يضرِبُ بجناحَيهِ الهواءَ في حركاتٍ انسيابيةٍ خلَّابةٍ، شعرَتْ بحماسةٍ تتملكُ مشاعرَها حينَما رأَتْهُ!

إنَّهُ هوَ! بوجهِهِ البشوش، ونظراتِه الحانيةِ، وابتسامتِهِ الودودة، نعمْ هو بكلِّ تأكيدٍ، بقلبِه الرقيق، وحُلمِهِ الراسخِ، وتطلعاته الحالمة.

نظرَتْ إلى عينَيْه ولم تبالِ، صَحَتْ ذكرى قديمةٌ في عقلِها بعدَ رُقادٍ، كم مِنَ الزمانِ مرَّ دونَ رؤيَتِهما؟ كم مِن ليالٍ قارصة قضَتْها دونَهُ تجلِس بمفردِها منتظرة عودتَه ولم يعدْ؟ كم مِن ساعات عصيبة مرَّتْ كدهور ولا زالَتْ تترقبُ مجيئَه ولم يعدْ؟ ذكرياتٌ سحيقةٌ ولَّتْ، وعهدٌ قديمٌ مضى، وسنونَ منصرمةٌ أخفقَتْ في عدِّها أو حصرِها! الآنَ وقد وَجَدَتْه، فلن تفرِّطَ فيه أبدًا!

جعلَتْ تتطلعُ لملامحِهِ فتساءلَتْ في جوفِها عن السرِّ وراءَ نضارةِ وجهِهِ وحيويتِهِ رغمَ مرورِ تلك السنينَ الطويلةُ، لم تفكرْ في إجابةٍ؛ فما شغلَها حقًّا هوَ سؤالٌ آخر: كيفَ ستُذَكِّره بنفسِها؟ وهلْ سيَقبَلُ تلكَ الحقيقةَ؟ سألَتْ نفسَها وهيَ تعزِمُ التحركَ نحوَهُ.

بالفعل تحرَّكَت واندفعَت متجهةً نحوَه، لم يَعُدْ يفصِلُها عنهُ سوى بضع خطواتٍ هيِّناتٍ، ظلَت ترمُقُهُ دونَ التفوهِ ببنتِ شفة. فجأة! حوَّلَ بصرَهُ نحوَها، فبدَتْ نظراتُ دهشةٍ على وجهِهِ البشوشِ الذي لم تفارقْهُ تلك الابتسامةُ الودودةُ. اعتدلَ في جلستِهِ وتركَ مرآتَهُ لحركةِ ذلك الطائرِ، وظلَّ يَنظُرُ إليها في محاولة فاشلة لمعرفةِ مَن تكونُ!

ظلَّتْ تُحدِّقُ فيهِ وترميهِ بالنظراتِ ثُمَّ.. ثُمَّ ألقت علَيهِ التحيةَ:

- السلامُ عليكَ يا عبدَ اللَّه.

تسارعَتْ أنفاسُهُ وهوَ يحاولُ أن يفهمَ الأمرَ، لقد وشَتْ ملامحُهُ بِجهلِهِ بها، فهزَّ رأسَهُ في تساؤل دونَ أن يتحدثَ، فأردفَتْ هيَ قائلةً:

- ألا تتذكَّرني؟

أصابَتْه الحيرةُ الشديدةُ عندَما سمعَ صوتَها مرةً أخرى، إنَّهُ يعرفُ هذا الصوت جيدًا، عقلهُ يخبِرُهُ بذلكَ، ولكن أينَ سمِعَهُ أو متى؟ لا يتذكر!

- هل تقابلْنا مِن قبل؟!

سألَها في حيرةٍ حقيقيةٍ علَّها تُجيبُهُ، فقالَتْ مبتسمةً دونَ أن يرى تلكَ الابتسامةَ:

- وكيفَ حالُ غُربتِكَ وتلكَ السنينَ الفائتةُ؟

ابتسمَ وهوَ يتذكرُ حالَهُ منذُ زمنٍ أخفقَ هوَ الآخر في حصرِهِ، تذكرَ حياتَهُ هناكَ، تذكَّرَ حينَما ضاقَتْ علَيه الأرضُ بما رَحُبَتْ، تذكرَ رحلتَهُ الطويلةَ، ثُمَّ تذكَّرَ مُستقرَهُ، فقالَ في محاولةٍ جديدةٍ لسبر أغوارِها:

- أشعرُ وكأنني أعرِفُكِ!

أخبرها بذلكَ وهوَ ما زالَ تائهًا متخبطًا، فدنَتْ منهُ أكثر حتى قالَت في امتنانٍ وسعادةٍ:

- خمِّنْ مَنْ أكونُ؟

قالَ بنفسِ الحيرةِ:

- أُخمِّنُ! لا أستطيعُ تذكرَ هذا، للَّهِ مَن أنتِ؟

نظرَتْ إليهِ مِن خلفَ وشاحِ وجهِها وهمَّتْ بقولِ شيءٍ ما، إلا إنَّها فوجئَتْ بتلكَ المرأةِ، ميادةِ القَدِ، ممشوقةِ القوامِ، كاعبةِ الصدرِ، غضةِ السيرِ تتقدَّمُ وتدنو منهُ في خُيلاءٍ حتى مالَتْ نحوَهُ متدللةً دونَ أن تُعيرَها أيَّ انتباه!

شعرَتْ بسعادةٍ ما تسري بجوفِها، فاقتربَتْ أكثرَ حتى كانَتْ قابَ قوسينِ أو أدنى من وجهِهِ، فقالَتْ في نعومةٍ وصوتٍ متهدجٍ:

- أمَا زلتَ لا تذكرُني يا عبدَ اللَّهِ؟ انظرْ إليَّ جيدًا وعدْ إلى الوراء، حيثُ كُنَّا رفيقَينِ وشريكَيْنِ بحياةٍ جمعَتْ بينَنا، ألا تذكرُ مَنْ كانَتْ تهوِّنُ عليكَ تعبَ الدنيا؟ ألا تذكرُ مَن كانَتْ تخبرُكَ دومًا أن اللَّهَ سيُعَوِّضُكَ بالخيرِ؟ ألا تذكرُ مَن كانَتْ تشدُّ من أزرِكَ وقتَ مرضِكَ الـ...!

توقفَتْ تنظرُ لملامحِهِ، ثم استطردَتْ في حُبٍّ:

- والآنَ، لا زلتَ لا تذكرُني! ألا تتذكر صوتي؟!

رجَّتْه نبرتها رجًّا فاعتدلَ أكثرَ وتفجَّرَتْ دهشتُهُ وهوَ يدفعُ المرأةَ الأخرى جانبًا برفقٍ..

أخيرًا تذكَّرَ هذا الصوتَ!

أخيرًا تذكَّرَها

نعمْ، إنَّها هيَ!!

نهضَ ليقفَ أمامَها مباشرةً، ثُمَّ مدَّ يدَهُ نحوَ وجهِها وأمسكَ بنقابِها وخلعَهُ عنها!

غشَّاهُ نورُها، وألجَمَهُ سحرُها، وأثملَتْهُ رائحتُها، وسَحَرَتْهُ ابتسامتُها!

نعم، إنَّها هيَ، زوجتُهُ في الدنيا التي أكرمَها وأدخلَها اللَّهُ الجنَّة معَهُ لِترافقهُ وتشاطرَهُ إيَّاها، والتي مِنْ شدَّةِ جمالِها وفتنتِها فاقَت جمالَ حورِ العينِ، لتصبحَ مِنَ الآنِ فصاعدًا سيدة عليهِنَّ.

يخلق من الشبه

كان أول يـوم فعليًـا بالعمـلِ فـي إحـدى شـركات التوزيـع، ومنـذ هـذه اللحظـة سـأبدأ العمـل بمفـردي بعـد فتـرة تدريـب لـم تسـتمر أكثـر مـن أسـبوع واحـد. لـم أحـب بالمـرة كونـي أصبحـت مندوبًـا للمبيعـات، غيـر أنـه مـن بـابِ حِـب مـا تعمـل حتـى تعمـل مـا تُحـب، حملـتُ حقيبتـي السـوداء متوجهًـا لتلـك المنطقـة المُحـددة مُسـبقًا لتسـويق منتجاتنـا.. أرتـدي بنطـالًا مـن الجينـز أزرقَ اللـون، وقميصًـا صيفيًـا أبيـض، ورابطـةَ عنـقٍ قـد قمـت بعقدهـا بعنايـة حتـى أبـدو أكثـرَ هندامًـا وأناقـة. ترجلـت راجيًـا اللـه الثبـات والسـداد، فلـم يكـن معـي سـيارة عمـلٍ تسـاندني، وبالطبـع لـم تكـن لـديّ سـيارة خاصـة أتـوكأُ عليهـا، وأسـلك بهـا دروبـي.

وقفـت أقـرأ مـا تيسـر مـن آيـات القـرآن داعيًـا اللـه أن يوفقنـي ويثبِّـت قدمـي، وبينمـا كنـت أهـم بالتحـرك وشـفتايَ تتمتـم بالبسـملة، لمحتهـا تقتـرب منـي فـي سـرعةٍ متوسـطة وعلـى ثغرهـا طُبعـت ابتسـامة عريضـة يبـدو فيهـا اللهفـة والسـعادة الواضحـة فـي الوقـت الـذي كانـت تشـير بيدهـا إليّ إشـارة التحيـة. وقفـت أمامـي مباشـرة وكادت تهـمُّ بمعانقتـي، مـدَّت يدهـا سـريعًا نحـوي بحفـاوة أدهشـتني، وبلهفـة الغريـق الـذي وجـد قشَّـته هتفـت:

- حسـاااام! بجـد أنـا مـش مصدقـة عنيـا واللـه، يـااااه! أخيـرًا، أخيـرًا ظهـرت!!

لـم أجِبهـا، وأخـذتُ أتلفـت حولـي وأنظـر إليهـا فـي اسـتغراب! هتفـت فـي دهشـة حقيقيـة:

- حسام! مالك؟ فيه إيه، إنت بتبصلي كدا ليه؟!

هالنـي الأمـر حقيقـة ولـم أعلـم وقتهـا مـاذا أقـول، فقـط وجدتُّنـي أبتسـم فـي ودٍ، وأنظـر إليهـا متفرسًـا ملامحهـا أكثـر، زويـت مـا بيـن حاجبـي ثـم قلـت مستفسـرًا:

- حضرتك تعرفيني؟

رفعتْ حاجبيها في دهشةٍ بالغة، ثم قالت في استنكار شديد:

- نعم! أعرفك؟ إنت أكيد بتهزر.. صح؟

الحـق أقـول: إن ثقتهـا الواضحـة جـدًا، وتهـدُّج صوتهـا الرقيـق جعلانـي متـرددًا بشـكل أصابنـي بالتوتـر، كانـت عينـاي ثابتتيـن علـى وجههـا تراقـب انفعالاتهـا، وجدتهـا حقًـا متأثـرة للغايـة، تـكاد تبكـي مـن ردةِ فعلـي تلـك، فاتسـعت ابتسـامتي وأنـا أقـول فـي تهـذب وأدبٍ:

- علـى فكـرة، أكيـد حضرتـك غلطانـة.. بصراحـة دي أول مـرة أشـوف حضرتـك فيهـا!

شـعرتُ كأنهـا سـتفقد وعيهـا، بالأخـص حينمـا رأيـت اتسـاع حدقتيهـا علـى هـذا النحـو، وملامـح الارتيـاع التـي حُفـرت علـى وجههـا، أخـذتُ شـهيقًا طويـلًا وأخرجتـه ثـم اسـتطردت:

- أنا آسف بجد، بس والله دي الحقيقة، أنا فعلًا معرفش حضرتك، ودي أول مرة أشوفك فيها، ملامحك ممكن تكون مألوفة بس أنا مش متذكر خالص إني قابلت حضرتك قبل كدا!

كانت ملامحها عذبة ورائعة، بشرتها بيضاء، وعيناها ملونتين واسعتين، وأنفها صغير متَناسق بشدة مع وجهها المشرق، لها جبهة دقيقة خُطّ بها تقطيبٌ عجيبٌ مؤثر، وصفَّانِ من اللآلئ يزيِّنان فمّها الدقيق، وجدتني آخذ نفسًا عميقًا آخَر وأستكمل حواري، بينما ظهرت نظرة خيبة أمل ولوعةٍ على وجهها:

- يا آنسة أنا مش عاوز أكون صدمتك، يمكن أنا أكون شبه حسام دا اللي إنتِ تعرفيه.. بس صدقيني أنا مش هو.

قالت بصوت متهدجٍ مكسور:

- ليه بتنكر نفسك مني؟ حرام عليك والله.. دا أنا من ساعة آخِر مرة شوفتك فيها وأنا بدوّر عليك زي ما تكون اتبخرت، ودلوقتي يوم ما أشوفك صدفة تتهرب مني وتعمل نفسك متعرفنيش؟ ليه بس؟ أنا عملتلك إيه؟ مش ذنب قلبي إنه حبك، ما هو إنت السبب.. إنت إللي علقته بيك!

كانت تتحدث بحرقةٍ مؤثرة، لذا لم أندهش كثيرًا حينما سألتُ نفسي: أحقًا أعرفها؟هل هذا الوجه الرقيق رأيته من قبل؟ ولكنّي سرعان ما عدلتُ عن هذا وشرعتُ في سؤالها:

- إنتِ بجد تعرفيني؟

تجدد الأمل بداخلها مع تلك النظرة التي ملأت عينيها وهي تجيبني:

- أيوه طبعا أعرفك كويس جدًا.

سألتها في هدوء:

- طب اسمي حسام إيه؟

قالت بتلقائية محيرة:

- لأ أنا معرفش اسم والدك.

صمتُّ لحظة ثم أردفتُ سائلًا:

- تمام.. إنتِ عارفة أنا شغال إيه؟

قالت في لهفة وسرعةٍ:

- أيوه طبعًا.. إنت مهندس، إنت قولتلي كدا.

كنت قد بدأت أشعر بأن هناك أمرًا غريبًا في حوارها، لذا سألتها مجددًا:

- حلو أوي، طب تعرفي أسامي أخواتي البنات؟

قالت في يأس:

- لأ

أكملت سائلًا:

- آخر مرة شوفتيني إمتى؟

قالت بعد أن اغرورقت عيناها بالدموع:

- من تلات شهور تقريبًا، ساعة ما خرجنا مع بعض، ويومها سمَّعتني كلام عمري ما سمعته قبل كدا.

كنت أتابع انفعالاتها بدقة تامة لعلي أسبر أغوارها، أو أقرأ أفكارها، حينها ربما أعرف إذا ما كانت صادقة أم أنها تستحق أوسكار عن أفضل ممثلة.

انتقلت لمرحلة أخرى.. مرحلة الحسم:

- شوفي بقى يا آنسة، أولًا أنا مش حسام، ومش مهندس، وعمري ما شوفتك لا من تلات شهور ولا حتى من تلات سنين، ويخلق من الشبه أربعين، ولو إنتِ بتهزري فكفاية هزار لأني مرتبط بميعاد عمل مهم جدًا، ولو إنتِ معتقدة إني حسام فأنا والله ما حسام.

بدون مقدمات انهارت في نوبةِ بكاء شديدة وسط المارة الذين بدأوا ينتبهون إلينا، تساقطت دموعها بغزارة حتى إنها قامت بخلع عويناتها وهي تقول في يأس:

- الله يسامحك.

حقيقة، اختلج قلبي من منظرها، واستبعدتُ تمامًا أنها تصطنعُ معرفتي لغرضٍ ما، أخرجتُ لها منديلا لتجفف دموعها، التقطته مني في هدوءٍ، وبدأتْ تهدأ قليلًا وسط عيون المارَّة المتطفلة، ثم قطعت صمتها قائلة في أمل:

- طيب أنا حصدق إنك مش حسام، وإنك متعرفنيش، ولا أنت شوفتني قبل كدا.. طيب ممكن أطلب منك طلب؟

قالت هذه الجملة وهي تقترب مني، فكانت لجملتها هذه رائحة لم تُرحني على الإطلاق. لم يظهر ذلك على ملامحي، إلَّا أن نظرة التساؤل اجتاحتها، لم تمهلني السؤال، فقالت في نعومة وبصوتٍ مرتجف عذبٍ قاتل:

- ممكن تقعد معايا شوية؟ أنا محتاجاك أوي ونفسيتي زفت ومحتاجة أتكلم معاك؟

مقاومتي كانت في حالة من الارتخاء ورغم هذا أجبتها:

- بصراحة مينفعش والله.

سألتني في ألم:

- ليه بس؟

لم أعلم بماذا أجيبها، فجرى الصدق على لساني:

-مرتبط بميعاد شغل وللأسف مينفعش أؤجله.

اقتربت أكثر حتى شممت عطرها الهادئ يخترق أنفي، ثم قالت في مزيجٍ من الترجي والألم:

- طب عشان خاطري، ساعة واحدة بس!

لم أجبها، فازداد تضرعها وهي تقول:

- أنا بترجاك.. عشان خاطري، شوية بس وبعدها امشِ!

بدأت مقاومتي تتعافى وأنا أرد رجاءها:

- بجد مينفعش.

نظرت في عينيّ وهمَّت بمد يدها لتمسك يدي، ثم عادت عن فعلتها وقالت بصوت باكٍ:

- يا حسام، حرام عليك، أنا بتوسل إليك إنك تقعد معايا وإنت برضو مصمم تجرحني؟

التفتُّ جانبي لأجد شابين يمران بجوارنا يبتسمان في خبثٍ، ثم أطلقا عبارات مزاحية لم تعجبني، عدتُ بنظري إليها بعد أن لفحتني نار التوتر ثم قلت في حِدة:

- يا بنت الحلال، والله أنا مش حسام، وكفاية بجد لحد كدا، وبعد إذنك بقى عشان اتأخرت.

أسبلت عينيها في ألمٍ واضح، ثم قالت بصوت متحشرج:

- يعني إنت مصمم؟

في حسم أجبتها:

- أيوه

بكت مرة أخرى وجسمها يرتعد بأكمله بينما كانت تنظر لوجهي في عتابٍ مؤلم، وألمٍ مُجرَّح، وجرحٍ غائر.. أدارت وجهها عني وهي تشير لسيارة أجرة فتوقَّفتْ على الفور، تقدمت نحوها واستقلتها دون كلمة واحدة.

تنفستُ الصعداء وأخذتُ القرار باستكمال تحركي، وبينما كنت أهُم بالتحرك في الوقت الذي لم تكد السيارة تتحرك فيه عدة أمتارٍ قليلة، حتى وجدتها -السيارة- تتوقف وتخرج منها الفتاة عائدة نحوي مهرولة، ثم وقفت أمامي وما زالت دموعها تنساب في غزارة ثم قالت:

- حسام.. لازم تقعد معايا، أنا بجد ممكن أعمل في نفسي حاجة.

في انفعال وقوة لم أعتدها في نفسي قلت:

- يا آنسة متشيلنيش ذنبك الله لا يسيئك، وقولتلك أنا مش حسام، وعظِّمي قدر الله بقى، شوفي حسام بتاعك دا فين ودوري عليه..

صمتْتُ لحظة ثم أطلقتُ نحوها رصاصة جديدة:

- دا لو كان فيه حد أصلًا اسمه حسام!

وقتئذ بكت بكاء مريرًا وردت جملتي بأخرى، وبصوتٍ مرتعش غير مصدقة:

- إ... إإنت... إنت كمان بتكدبني! وانفجرت مرة أخرى في بكائها.

عاد إليَّ هدوئي فسألتها في بساطة وابتسام:

- بصي، بتعرفي تقرئي كويس؟

قالت دون فهم:

- نعم؟!

وضعت يدي في جيب بنطالي الخلفي مستخرجًا حافظتي الجلدية،

وأخرجت بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بي، ثم مددتُ يدي بها نحوها قائلًا لها في توضيح:

- تعرفي تقرئي؟ مكتوب إيه؟

لم تجبني، فعاودت سؤالها:

- هاه، مكتوب إيه؟

اقتربت مني كثيرًا حتى لمس كتفها ذراعي، ثم قالت مندهشة:

- خالد! مين خالد دا؟

ابتسمتُ في مزاح:

- ابن خالتي.. خالد دا يبقى أنا حضرتك.

سألتني في بلاهةٍ:

- إيه دا، أومال فين حسام؟!

انفجرتُ ضاحكًا، لم أتمالك نفسي حقًا وأنا أجيبها مازحًا:

- حسام اتقبض عليه.. إتجار وتعاطي.

سكتتْ وكأن الحقيقة بدأت تتكشَّفُ لها، فقالت مترددة:

- لأ بجد، هو إنت مش حسام؟!

في تلقائية وبساطة قلت مازحًا:

- والله أنا خالد يا فندم مش حسام.

ظلت تنظر إليّ تظن أنني أكذب عليها، طال صمتها لعدة ثوانٍ، ثم قطعت صمتها بذلك السؤال المفاجئ:

- طب ممكن تقعد معايا شوية يا خالد؟

أخبرتها في حسم:

- صدقيني مش حينفع.

- ولا حتى ساعة.. بجد محتاجة أتكلم معاك!

في هدوءٍ حاسم جاوبتها:

- للأسف مش حينفع.

قالت في استسلامٍ:

- مصمم.

ابتسمت قائلًا:

- أيوه.

هزت رأسها في حزنٍ ثم قالت:

- يا خسارة!

عادت لتستوقف سيارة أجرة أخرى، وفي هذه المرة لم تنزل منها حتى اختفت عن ناظري إلى الأبد.

الست راوية

حارسة البناية التي أقيم بها منذ سبع سنوات، أسأل نفسي في مكاشفة حقيقية عن سبب حبي الشديد لرائحة كل ما تصنعه من طعام.

هي الست «راوية»، أم يوسف، الحقيقة هي عمته، وهي أيضًا أم ريتاج، الحقيقة هي خالتها. راوية امرأة ريفية أصيلة، نموذج رائع للبساطة والعفوية، يعني ست مصرية ريفية على سجيتها وفطرتها، امرأة حين أُلقى عليها السلام أرى انتفاضتها بينما ترد السلام بحفاوة شديدة، انتفاضة احترام وتقدير، وليست بأي حال فزع أو خوف، طبيعة بسيطة تتسم بالرحابة الشديدة والردود المباشرة، لم نعد نراها كثيرًا. حين أسألها سؤالًا عاديًا، تهب واقفة من جلستها المربعة، وتجيبني على الفور، مثلًا ذلك اليوم الذي تناهى إلى سمعي صوت شجارٍ يأتي من الشارع لا أعلم بين مَن، ولمَّا سألتها بينما كنت أهم بالتحرك: هل ذلك الشجار كان معكِ؟ لقد خُيِّل إليّ أنني سمعت اسمك! وجدتها قامت من قعدتها ووقفت تشير بإصبعها على العمارة المقابلة لنا، لم تُجب مثلًا إجابة مقتضبة، (آه أو لا)، وجدتها تحكي معي وتخبرني عن الجار الشاب إذ كان يتشاجر مع جارته لأنها ألقت أمام باب شقته وأمام باب العمارة ماءً بالملح.

«تصدق، لسة بيقتنعوا بالهبل دا يا أستاذ خالد»

كانت هذه جملتها التي أطلقتها فور سؤالي، قالتها بصوت عالٍ بمدخل العمارة، فكان لصوتها رنَّة وصدًى كالبوق، فمن لا يعرفها ربما ظن أنها تفضحهما!

يبدو أني قد خرجت عن السبب الأساسي لذكري الست الراوية! آه، كنت أحدثكم عن رائحة طعامها الزكية الشهية. تبًا لتلك الشهوة الغامضة! تحيك لي شرًا دائمًا، وتضعني في مهب الريح، تنتفخ أوداجي أمام رائحةٍ ما تعصف بأنفي، ويشملني شعور الانتشاء ما إن تصل لرأسي، تلك الصنوف الشهية التي تصنعها لا تقاوم، لا راد لتأثيرها على شهوة البطن، الجميل أنها تذكِّرني برائحة طعام أمي وأنا طفل، والغريب أنَّها لم تخيِّب حدسي يومًا، والمُريب أنني بكل مرة أقف على عتبة المصعد وأبتسم دون وعي وأقول مثلًا: باذنجان بالخل والثوم!

كثيرًا ما أود سحب رغيفٍ من العيش البلدي الذي ابتعته وأتقدم ثم أطرق بابها في رفق طالبًا أن تملأ رغيفي بما تصنعه. الحقيقة، أملك حاسة شمٍّ حساسة جدًا ودقيقة للغاية تجعلني أشتم وأتذوق الأطعمة الشهية قبل تناولها. لا أنسى ذلك اليوم، كنتُ عائدًا مبكرًا من عملي، وما إن وطأت قدمي مدخل البناية حتى لقطت أنفي رائحة لم أشمها منذ عقدين تقريبًا، يا لكِ من باعثة للذكريات يا راوية! لقد تسمرت لحظة تغير فيها كل شيء، زال بأس التعب، ونسيت إرهاق العمل، وتبشش وجهي، وارتفع مؤشر «الإدرينالين» وكدتُ أسير هائمًا مغمض العينين ومتبعًا رائحة «المحشي» التي غزت مدخل البناية وربما البناية المجاورة، لقد صحَت بداخلي ذكرى طعام أمي، وجعلتني أبدو مثل (سبايك) ذلك الكلب الشهير بكرتون الأطفال الأشهر توم وجيري، حين كان نائمًا وسحبه القط توم برائحة قطعة لحم حتى أغلق عليه الشَّرَك الذي نصبه له!

أصبحت لبطني شهوة وحالة سعار وهوس لا أسيطر عليها، فكل يوم يتزامن ميعاد وجودي بما تصنعه، أقول على الفور: فول بالطماطم، مسقعة، صينية بطاطس باللحم، شوربة مرق دجاج، دجاج محمَّر.. وهكذا، وكأنني أختبر نفسي، وأختبر مدى تركيزي في معرفة صنوف الطعام التي تصنعها!

يبدو الأمر سخيفًا أليس كذلك؟!

شتان بين الذي يعلم والذي لا يعلم، هناك ألسنة لا تفرّق بين اللذيذ والألذ، وهناك ألسنة خبيرة متدربة، تميز جدًا بين كل مذاق وطعم، عليهم أن يختاروني خبيرَ مذاقات على وجه السرعة!

أعود مجددًا للست راوية، لا تملك راوية إمكانيات الشيف المشهور، ولا أدواته، فقط لديها كنزها الثمين، وابور الجاز، ورغم قلة الإمكانيات، لكنها تملك نفَسًا لا يملكه أقوى الطهاة وأكثرهم خبرة، بالأخير هم لا يصنعون تلك الـ (الطشَّة) الخاصة بالملوخية كما تصنعها الست راوية!

أفتح باب شقتي لأجد تيَّارًا هوائيًا قادمًا من نافذة الطابق المُطلَّة على فناء البناية، معبَّقًا برائحة الثوم والكسبرة المختلطتين، رائحة تُزكم أنفي، ستجعلني أبدأ يومي بابتسامة مشرقة، ولعلي بيوم آخر أشعل فتيل الحرب العالمية الرابعة حين أعود وأشم عند عتبة المصعد طاجن البامية باللحم، وقتئذٍ، إما سأشمر عن أكمامي وأجلس أتناول الطعام معهم وأنسى زوجتي والأولاد، أو أني أصعد سريعًا وأبدأ تلك الحرب الشعواء بسؤال زوجتي بحسرة: لماذا لا تطهين مثل راوية؟

مدد يا حسين!

"الحسين!! هذا المسجد به ضريح"

هكذا هتفتُ مستنكرًا ردًا على صديقي حين اقترح عليَّ أن نصلي المغرب بمسجد الحسين بالقاهرة القديمة. كانت هذه المرة الوحيدة، فعددتُها الأولى والأخيرة، كانت تمشية مسائية أردنا بها استكشاف ابنة المعز وضواحيها عقب يوم بدأ منذ السابعة صباحًا، ونهار امتلأ بمحاضرات تخص طبيعة عملنا، دورة تدريبية يحاضرنا فيها الأمريكان، بعد انتهاء المحاضرات الدسمة، والتواصل عبر المترجمين للاستفسار والرد على المحاضرين، أراد بعض الزملاء الخروج لفسحة ترفيهية نصطحب فيها أحد المحاضرين كنوع من التحفيز لنا ومحاولة لتقريب الثقافات مع المحاضر -الرائع- في آخر يوم بالدورة التدريبية.

انقسمنا لثلاث مجموعات، ضمت المجموعة الثالثة صديقي المقرب «محمد إلياس» وأنا، كان مكان التجمع واللقاء مقاهي الحسين، وصلنا للمكان ولساحة مسجد الحسين، وما إن وطأت أقدامنا الساحة انطلق لسان محمد في حماس يخبرني أن الصلاة بالحسين ليس لها مثيل، فأخبرته ما أسلفت قوله، فقال لي في نصح: «إحنا بنصلي لله مش

للضريح، وكمان صلاة العشا قربت ومش عاوزين نضيَّع المغرب علينا»، ورغم عدم اقتناعي بالمبدأ، لكنني ذهبت معه محدثًا نفسي أنني سأصلي بالخارج طالما هناك ضريح حتى لو كان للحسين!

سارع صديقي بالدخول للوضوء واللحاق بركب الجماعة الثالثة ربما، وكنت على وضوئي لم أنقضه، فاقتربتُ من باب المسجد ووقفت على عتبته وأطلقت نظري داخله، لم أنتبه بداية للصوت المتزاحم نظرًا لانشغالي بذلك الضوء الأخضر القادم من قلب المسجد، ظللتُ واقفًا أرقب ما يحدث بالداخل وأتساءل: أين سأصلي؟ هناك وعلى بُعد أمتارٍ رأيتُ شلالًا من البشر يتجمعون، وارتفعت الأصوات المتزاحمة لتصير متزامنة متَّسقة، جعلت ترتفع قوتها تدريجيًا بقول: «الله حي، الله حي»، آنذاك سرت بجسدي قشعريرة باردة خاصة حين وجدت الشلال البشري قد كوَّن دائرة وعكفت أجسادهم تميل للأمام حين يصيحون: «الله»، وتعود منتصبة في حماس تقشعر منه الأبدان عند ذِكر: «حي»، وقتها قررت وعزمت أمري وانطلق هتاف من داخلي: لا لا، لن أصلي بهذا المكان وسأصلي بالخارج لعل الله يتقبل مني، الأساس أنه يجوز لي القصر لأنني على سفر، لكن قد تواجهني مشكلة، فكثرة النساء المتشحات بالسواد واللاتي افترشن الطريق قد لا تسمح لي بالصلاة في خشوع، لا سيما بتعالي أصواتهن بشكل يُفقد مكان الصلاة بالعموم قدسيته وهالته، غير التقاط أذني بعض الشتائم النابية المتبادلة بين امرأتين تبدوان كما الهجَّامات وبأسلوب ساقط فج، وبينما كنت أستدير لأعود أدراجي وأبحث عن مكان يصلح للصلاة فوجئت بشبح أسود يقفز أمامي.

رجل مربوعٌ تناثرت شعيرات لحيته بشكل عشوائي، انبلج أمامي فجأة وظل يبرّق بعينيه بشكل أصابني بالتوتر بالفعل، قال لي بصوت

أجش: «إنت مش حتدخل تصلي ليه؟»شعرت باشمئزاز لرائحة أنفاسه الكريهة، وللون أسنانه التي تباينت ما بين الأصفر، والبني، والأسود، الرجل مصاب بالبخر على ما يبدو، نظرت إليه وقبل أن أتحدث قام بفعلٍ غريبٍ للحق أرجفني، ليس خوفًا، ولكن لما عليه من ضلال.

ظل ينظر إليَّ ويتابع بعينيه نظراتي بينما أخذ يقترب من باب المسجد عند الحائط الرخامي وبدأ يمسح بكفه الحائط الرخامي الرطب ويقول وهو يمط الحروف ويمدها في تضرع ودروشة كأنما أصابه مسٌّ: «يا حسيييين.. يا حسيييين»، ثم زادت دروشته خبلًا حين قرَّب شفتيه الرماديتين -ربما متفحمتين- وقبَّل الرخام ولا زال يمسح بكفه الحائط، ينظر نحوي ويقبِّل الحائط، أظن أنه أراد أن يستفزني، صرفت نظري عنه وتحركت، فقفز كالكنغر أمامي يعترض طريقي، فتملَّك مني الغضب، فدفعته بساعدي ناهرًا: «ابتعد»، تراجع للوراء وظل يضحك ببلاهة، ثم اقترب خطوتين وقام بالدوران من حولي وهو يؤدي بجسده ويديه حركاتٍ بهلوانية عشوائية تشبه خبَله تمامًا، عاد ليقف أمامي وسألني بعين زائغة ولسان ثقيل: «إنت عارف إن الحسين اتدبح في العراق وراسه طارت وجت هنا؟»أجبته في سخرية: «يا سلام!» هتف: «والله طارت وجت هنا، عشان كدا البركة كلها هنا، وسيدنا الحسين بيسمعنا وبيلبي طلباتنا كلها»، كان يتحدث ويأتي بنفس الحركات العشوائية بجسده؛ في لحظة يزم شفتيه، وبلحظة يغمغم، وبلحظة يصيح وعيناه تبرقان وتنظران لمجهول، فسألته: «ولماذا لا تسأله أن يعطيك ملابسًا رائحتها طيبة؟» لم يجبني وظل يتمايل على صيحة: «الله حي»، ثم قفز ناحية رجل آخر وظل يصيح: «يا حسيييين.. يا حسيييين».

لم تتحمل أعصابي هذا الكم من الضلال والسخف، وشعرت لوهلة أنه مقلب الكاميرا الخفية، وحين تيقنت أنني لا أهذي، وأنَّ ما حدث منذ

لحظات حقيقة بالفعل، تركت مكاني وابتعدت دون أن أصلي المغرب، وبجوفي مشاعر غضب عاتية، لقد شعرت أن العقول بالية وفارغة، وأن صحيح الدين لا يعلم عنه هؤلاء شيئًا بالمرة، ويكتفون بالاعتقادات الكفرية معتقدين أن التمسُّح والتبرّك بالأضرحة، وطلب العون من الأولياء والتبرُّك بهم يجلب لهم المنفعة ويدفع ويكشف عنهم الضُّر، فمضيت غاضبًا والتفتُّ خلفي أنظر إليه مع انطلاق أذان العشاء لأراه واقفًا عند باب المسجد يكاد جسده يلامس الحائط الرخامي و.. وينهال عليه تقبيلًا.

شاي بلبن أم جلال

''إياك أن يفور اللبن!''

هكذا تصيح أمي غير متوعدة، لكنها حريصة على شحذ انتباهي حتى تمنع كارثة فوران اللبن وغرق سطح البوتجاز، سيكلفها هذا مزيدًا من التعب والإرهاق في التنظيف، بخلاف أن حصة كل واحد من اللبن ستقل بنسب متفاوتة، وهذا ما سيعكِّر صفو أمي؛ لأن «توليفتها» السحرية التي تصنعها من الشاي مع اللبن لها مقادير معينة وثابتة في رأسها لا يمكن الحيد عنها، وسيؤدي نقص كم اللبن نتيجة الفوران إلى اختلاف النسب وهذا ما يغير من طعم التوليفة التي تتقنها؛ لذا كانت الأوامر الصارمة: «إوعى تسرح حتى لحظة يا دودي عشان اللبن حيفور لو انشغلت عنه» فكان لزامًا أن أمد بصري دون أن أشرد لحظة حتى لا ينسكب اللبن.

كانت أجواء يوم الجمعة مميزة جدًا، نجتمع على طبلية واحدة، ونبدأ ببسم الله -سأتحدث لاحقًا عن أجواء الفطور وبركة تجمعنا، وعن رائحة «الفلافل» المحشية، وطبق الفول بالسمن البلدي- أعود لأمي، كانت أمي - أم جلال - تجعلني أقف انتباه كجندي في الصاعقة، عيناي كصقر يراقب فريسته، فكنت أتابع اللبن بالقِدر الألومنيوم -الكسارولة-

وبيدي ملعقة التقليب، كانت التعليمات أن أركز بالقِدر وما إن ألمح بداية غليان اللبن بالحواف أبدأ في التقليب المستمر حتى يبدأ اللبن في الغليان والارتفاع، كان سباقًا مع الزمن، ما بين سرعة استجابتي والتقليب كما أرشدتني أمي، وبين سرعة يدي الأخرى في إطفاء عين البوتجاز في اللحظة المناسبة، بالوقت الذي كانت فيه أمي تؤدي صلاة الضحى.

بداية أثبْتُ لها شطارتي حين استخدمت الملعقة في التقليب وأطفأت العين قبل أن يفور اللبن، لاحقًا كنت أسقط الملعقة داخل القدر، وتشم أمي رائحة «شياط» اللبن المهدور على النار، ومن جلستها ترفع عقيرتها غاضبة: «دووووووودي، إنت فوَّرت اللبن»، كانت صيحتها كفيلة أن تجمد الدماء بعروقي، وكنت أتوقع عقابًا، فيحدث وتعاقبني، ولكن لم يتعدَّ العقاب «زغرة» عينيها التي ترجفني.

أمي حفظها الله ماهرة بكل شيء، تمامًا كمعظم أمهات جيلي، ولو تحدثت عن توليفة مج الشاي مع اللبن فسأحتاج لموسوعة للتدوين، كانت تجلس «مربعة» كجلسة تمثال الكاتب المصري، تضع أمامها صينية دائرية من الإستانلس -كنت قد أخذتها كجائزة لحصولي على المركز الأول في لعبة دفع الجُلَّة على مستوى إسكندرية- أرقبها عن كثب مبتسمًا ومنتظرًا كوبي، تمسك إبريق الشاي بعازل من القماش المطوي بعناية، تقوم برفع غطاء الإبريق وتشم رائحة البخار المتصاعد ثم تقول: ده شاي خفيف يا دودي، التلقيمة محتاجة تتقل شوية، ناولني برطمان الشاي من دولاب المطبخ»، أقفز مبتسمًا وأسرع للمطبخ، أمد يدي وأحضر البرطمان، أعود مسرعًا فتلتقطه مني وتفتحه وتضع بغطاء البرطمان بعض الشاي الناشف ثم تلقيه داخل الإبريق وتضع القماشة على الغطاء وتغمغم في سعادة: «نسيبه شوية عشان يُخرط»، إن هي إلا دقيقتان أو ثلاثة ثم تبدأ العزف!

ترص الأكواب الزجاجية ومج أبي كالبنيان المرصوص وهي تقول: «حمدي، دودي، جلال، علا، مروة» ثم تضع السكر كلٌّ حسب مذاقه الذي يحبه، وهكذا تستكمل الأكواب، كانت ملامح وجهها وهي تعد الأكواب تغمرها السعادة، والحب، والطيبة وكأنها تصنع عقارًا يداوي المرضى، كنا مرضى بالفعل نتداوى بكوب الشاي مع اللبن، نستلذ بتوليفتها، ونتهافت عليها، وأوقات كنا نتخطّف الأكواب من أيادي بعضنا البعض. عقب مرحلة السكر، تضع أمي بعض اللبن بالأكواب بشكل متقن وكأنها في معمل، غير أن عبقرية أمي أنها لا تستخدم ماسِكًا، أو حاملًا، أو أواني مستطرقة!

تكتمل عبقرية أمي في صناعة أكواب الشاي مع اللبن في نظرتها وليس لسانها! كانت لا تتذوق الأكواب لتعرف هل وصلت للمذاق المطلوب أم لا، تستخدم عينيها لتتابع درجات تغير لون اللبن، وعند درجة لون معينة -لا أعرف ماذا تسمى- تتوقف فوهة الإبريق عن استمرار السكب، تنظر أمي للأكواب وتقول في حماسة: «حلو كدا»، ومع أول رشفاتنا من الأكواب تتخللنا جميعًا مشاعر السعادة، فأرى الرضا على وجه أبي «المستمِخ» من الطعم، وأشعر بلذة الطعم بشكل لم أشعر به من قبل، حتى تنتهي الأكواب، لتجدني أمي أمد يدي بالكوب الفارغ وأسألها على استحياء إن كان هناك المزيد.

أمي هي مصدر طاقتي المتجدد، ومعها عشت ذكريات لا تنسى، وها أنا ذا ببداية عقدي الخامس ولا زال صباحي لا يبدأ سوى بمجِّي الحبيب الممتلئ حتى آخره بمشروب الشاي مع اللبن، ورغم محاولاتي -البائسة- خلال العشر سنوات الأخيرة من عمري للوصول لنفس المذاق الذي تصنعه أمي، لكني أفشل دومًا وأنا أتساءل: هل يمكن أن تُسجَّل براءة اختراع لمذاقٍ باسم أمي.. أم جلال؟!

مغامرة بحرية مع أخي جلال

تحرك أخي في ثقة وخِفة على تلك الصخور، بينما كنت أتبعه وعلى ثغري ابتسامة حماسية لتلك المغامرة الجديدة، لم تكن مغامرة يشملها جري وهروب أو تسلق للجبال، بل كانت مغامرة بحرية بمفهومي وقتذاك. جلال أخي، ذلك الطيب، ذو القلب الكبير، والملامح الندِيَّة، والعطف الذي لا ينتهي.

كنا في صيف ١٩٩٤ حيث الأجواء الصيفية التي ننتظرها كل عام، نرتدي الشورتات الجينز التي نستخلصها من قص السراويل بعد أن نحت وانبرى قدمها، ونذهب للبحر كل يوم. اعتدت في الصيف وفي الصباح الباكر وحين تدق السادسة أن أستيقظ دفعة واحدة متحمسًا لليوم، كنت لا أحتاج لتبديل ملابسي، ولماذا أحتاج وأنا أنام بها بالفعل؟!

في تمام السادسة والنصف، وبعد نزول والدي -رحمه الله- إلى العمل، أهبط الدرْجات قافزًا، أصل للشارع، وبنفس الوقت يبدأ الأصدقاء في التوافد إلى أن تصل عقارب الساعة لتمام السابعة، حينها نجري جميعًا متجهين صوب شاطئ البحر، تجمعنا ابتسامة حماس

وبهجة حقيقية وبراءة لقلوب لا تحمل همَّ الغد و.. ونتشارك جميعًا في كوننا حُفاة! نعبر شريط الترام جريًا، وشارع بورسعيد، ونستمر في الركض حتى نصل لنفق «كليوباترا»، نجتاز النفق للناحية الأخرى حتى نرى البحر، وتملأ صدورنا رائحة اليود المختلطة بالعشب الأخضر ورائحة سمك «البطاطا» الذي يستخلصه الصيادون من الغزل.

كنت أول من يدخل الماء ويغطس، في الصباح تكون عادة المياة باردة، ومع العرق الذي غمرنا نتيجة الركض، ومع الشعور بالحرارة، يكون ملمس الماء باردًا، فآخذ نفسًا وأنزلق في ماء البحر ثم يتبعني الأصدقاء. لن أتحدث عن اللهو واللعب وفرحتنا بالأمواج التي نتسابق فيما بيننا مَن ستحمله الأمواج إلى الشاطئ أولًا، ولن أتحدث عن قطع الفللين التي كنا نستخدمها وقتها كمصد لركوب الأمواج حتى تساعدنا على الطفو والخروج سريعًا إلى الشاطئ، وسأكتفي أننا كنا نقضي ساعتين من المتعة التامة حتى أعود - أنا - في التاسعة أو العاشرة وأصعد للمنزل لأخبر أمي أنني جائع، وبعد وصلة من التوبيخ والتعنيف من أمي لأنني ممتلئ برمال البحر، وملابسي مبتلة ودعست السجادة بقدمي المتسخة، تضع لي الفطور، فأتناوله في عجالة وأعود للشاطئ من جديد، أقضي ساعتين أخرتين وأعود لتناول الطعام، وأسمع مرة أخرى توبيخ أمي الرؤوم الحنون.

أعود لأخي جلال، كان يضع بأحد جيوب الشورت «شوكة» اختلسها من درج «النملية»، وبالثانية شوالين فارغين طبَّقهما بعناية، على وجهه فرحة لا يستطيع إخفاءها بالوقت الذي ينفر فيه عرق جبينه الطولي، وبالطبع لا ينسى ارتداء «السلبس» الأبيض حتى يقيه من الجروح.

الطريق أمامه على مرمى البصر، وعلينا قطع مسافة لا تقل عن ثلاثين مترًا نسير فيها على الصخور المنتشرة بمنطقة كليوباترا حتى نصل

للمكان الذي اختاره أخي سلفًا. ثقته هي بوصلتي التي ترشدني وأتبعها بقلبي رغم ضرورة بقائنا صامدين أمام لطمات الأمواج التي قد تسقطنا وتجرفنا على الصخور، وضرورة تجنب النتوءات الصخرية والحفر التي قد نسقط فيها لو لم نكن نعرف خريطة الطريق، غير أن أخي كان رحَّالًا بالفعل يجيد رسم خريطته. نصل للمكان في وسط البحر على الصخر، بينما المصطافون من بعيد يمرحون ويتسابقون ويلعبون «الركت»، ينظر لي أخي في قوة وهو يستخرج أحد الشوالين ويقول لي بلهجة آمرة: «دودي، امسك الشوال دا وإوعى يقع منك» وفي لمح البصر، وبسرعة استجابة خرافية أمسك الشوال بقبضة فولاذية أخذتها عن «أدهم صبري»، يضع أخي الشوكة بين أسنانه ثم يبدأ المرح.

يحب أخي جمع الجندوفلي، والكابوريا، والرستة، أرقبه في سعادة ويدي لا زالت تقبض على الشوال، يثني ركبتيه ويميل بجذعه ناحية اليمين والشوكة بين أسنانه، يظل يبحث بكفه عن شيء ما، ثم يخرجها ممتلئة بالرمال، يترك الموجه تجري على كفه فتسفر عن قطع من الجندوفلي، ينظر لي فأفهم نظرته، أفتح الشوال في قوة على الفور ليلقي هو بغنيمته داخله، وبسرعة الفهد وقوة الليث -كأدهم- أغلق الشوال ثم آخذ نفسًا وأغطس برأسي تحت الماء وأعد في عقلي من واحدٍ حتى ثلاثين ثم أخرجه. خلال ساعة يمتلئ نصف الشوال بالجندوفلي، وبعدها يمسك أخي الشوكة ويبدأ في استخراج الكابوريا من بين الصخور.

شجاع أخي ولا يهاب قرصة كلَّابات الكابوريا، يستخرج كبيرة الحجم، أما الصغيرة فيلقيها بالماء مرة أخرى، وهنا يأتي دوري في فتح الشوال الثاني الذي يمتلئ بالكابوريا والرستة. خمس ساعات أقضيها ملاصقًا لأخي حتى ينتهي من الاقتناص والجمع، يملأ شوالين من خير البحر ويخرج كفارس منتصر في حربه التي نالت منه مرة بالقرص،

ومـرة بالجـرح بسـبب الصخـور الحـادة، بينمـا أجـرُّ أنـا مـن ورائـه الشـوالين كجنـدي يحمـل غنائـم الحـرب. مـا هـذا الخيـر؟ وكيـف اختفـى؟!

الآن، وبعـد مـرور ثلاثـة عقـود، أقـف علـى شـاطئ البحـر مبتسـمًا فـي حـزن أتذكـر تلـك الأيـام وشـكل أخـي وهـو يقبـض علـى الشـوكة بيـن أسـنانه، وأتذكـر فرحـة أمـي بهـذا الخيـر الـذي سـاقه اللـه لهـا عـن طريقـه، وللحـق، لـم تكـن فرحتهـا بأخـي جـلال وحـده، بـل بأخـي الأكبـر الـذي عـاد مـن الصيـد هـو أيضًـا -بسـنارته- وبالغلَـق الـذي يحملـه علـى كتفـه وبـه مـا لا يقـل عـن ثمانيـة كيلـو مـن الأسـماك المتنوعـة، فيشـتد حزنـي وأنـا أقـول لنفسـي: لمـاذا لـم تـدم تلـك الأيـام؟

السعادة تطرق باب المقبلين

بلقائنا الأول الذي بدأ في التاسعة صباحًا، هبطت عليّ هالة من السعادة لم أكن قد جربتها من قبل، لا شك أنَّ هيئتها المهندمة، ونظراتها الملهمة التي تُشعرني -مذ بدأت عيني رؤيتها- بأن الملائكة يمكن أن تسكن الأرض، وصوتها الصافي كسماءٍ خلت من السحب، وضحكتها التي تجلب معها خليطًا من نسائم الصباح، ورفرفة الحمام، وأريج زهور مارس المعطَّرة، كلها كانت أسباب كافية للشعور بالطمأنينة والراحة.

لم يجمعني بها مكان بشكل مرتب له، بل كانت كلها صدف وأقدار تربطني بها، ويا لتلك الأقدار التي تجعلني فور مرورها أمامي أغمض عينيّ وألتقط نفسًا تتخللني خلاله رائحة عطرها المميز! كان خليطًا منعشًا يجعلني أبتسم رغمًا عني، لقد ميَّزت أنفي -الحساسة- منه القرنفل، والليمون، والتوت، والخزامى، ولا شك أن تلك الحالة التي تعترينى كلما مرت من أمامي أو جواري وشممت عبيرها تعطيني جرأة لحظية لأستوقفها وأسألها: «ما اسم عطرك؟» لتتطور هذه الحالة وتجعل مني «جون باتيست جرونوي» في رواية «زوسكيند» حين أشمه على امرأة غيرها بمحض الصدفة، إذ ينتفض قلبي وينقبض صدري، فأغمض

عينـيّ وأهـم بالتحـرك ناحيـة تلـك الرائحـة، وحيـن أفتـح عينـي وأسـتدير متوقعًـا رؤيتهـا، يعبـس وجهـي وأتنهـد فـي أسـى: «ليسـت هـي». أحببـت موقـف الانتظـار الخـاص بالحافـلات العامـة، أترقـب ظهورهـا كزهـرة تنتظـر أشـعة الشـمس لتسـتمد منهـا الـدفء وتسـتمر فـي الحيـاة، وحيـن تقتـرب وتقـف أمامـي بخطـوة، أشـعر أنهـا تنتظـر منـي ردة فعـل، فأشـرئب فـي توتـر، وأميـل برأسـي بضعـة سـنتيمترات لألمـح طيـف ابتسـامتها علـى جـزء مـن ثغرهـا، وأرى رموشـها الطويلـة حيـن تغمـض وتـرد الطـرف. كـم أحببـت الحافلـة ووجـوه النـاس بموقـف الانتظـار! بـل أحببـت سـائق الحافلـة وتدافـع النـاس مـن حولـي، وصـرت بعينـي مجنونًـا حيـن أحببـت تزاحـم البعـض داخـل الحافلـة وأنـا أقـف ثابتًـا تقبـض كفـي علـى عمـود سـقفها وأتشـبث فيـه حتـى لا أتزحـزح قيـد أنملـة لأظـل أنظـر إليهـا وأشـعر بقربهـا منـي، بينمـا تجلـس هـي علـى المقعـد الـذي يحـازي وسـطي. فـي الصيـف أقـف مسـتترًا اتقـاء أشـعة شـمس الصبـاح الحـارة، وبالشـتاء أدفـن جسـدي داخـل سـترتي المبطنـة، وفـي الحالتيـن تمسـح عينـي وجـوه المـارة حتـى تظهـر.

الانتظـار والتسـويف همـا غـدر الوقـت بنـا، لقـد قـررت بعـد عامين كامليـن مـن الانتظـار أن أصارحهـا بمـا يحملـه قلبـي لهـا مـن مشـاعر، لتأتـي الصدفـة بعـد عامين حيـن صعدنـا الحافلـة سـويًا، وبهـذه المـرة جلسـت هـي جـوار رجـل أشـيب تجـاوز عقـده السـابع، وبعـد مـرور دقيقتيـن قـام بجسـده المرتعـش لينـزل مـن الحافلـة لأحشـر نفسـي سـريعًا بعدمـا انزاحـت هـي جانـب الشـباك وأجلـس جانبهـا، مـرت دقائـق وأنـا أشـعر بسـعادة لا حصـر لهـا، كنـتُ لا أجسـر علـى الحديـث معهـا، ولا أعلـم مـاذا أقـول، إلا أننـي حيـن أدرت رأسـي مصطنعًـا النظـر إلـى الطريـق، لمحـت ابتسـامتها وخجلهـا كأنمـا شـعرتْ بمـا أحملـه لهـا، بالأخيـر همـا عامـان مـن الصمـت الظاهـري بينمـا حـوى قلبـي عشـرات الأحاديـث والحـوارات و..

«هل يمكن أن نتناول قهوة الصباح سويًا؟»

لم أدرِ كيف نطقتها، وهذا عجيب جدًا، لكن الأعجب كان في رد فعلها! التفَّت بجذعها نحوي، ونظرت إليَّ دون أن تهتم بنظرات العيون المتلصصة، وكدت أغمض عيني من لمعة عينيها التي تغشي الأبصار، فمطَّت شفتيها، وهمست في مداعبة: «جاءت متأخرة للغاية، لقد مر عامان تحديدًا.. أليس كذلك؟» كانت التاسعة صباحًا، لم أشعر بمُضي الوقت، لكننا فوجئنا أنها السابعة مساءً! بعد تناول القهوة بدأنا نتحدث، سريعًا تجاوبنا، وتبددت سحب التوتر، وانقشعت غيوم الخوف، وهكذا دارت الحوارات، وارتفعت الضحكات لتنتهي قصتنا بزفافنا الميمون بعدما ضيَّعت عامين كاملين من الانتظار لأتعلم أمرًا مهمًا للغاية.. أن السعادة تطرق باب المقبلين، وأن الحياة لا تنتظر أحدًا، وأن الإقبال هو عين العقل حتى لا نضيِّع وقتًا من السعادة نحن أحق وأولى به.

معزوفة الحياة

ضمَّ إبهامه وسبابته ثم رفع ساعده بمحاذاة صدره وجعل يحركه مع كفه في تناغم ورويَّة كأنه قائد أوركسترا محنك، أغمض عينيه واحتلت وجهه ابتسامة عذبة ظلت تتسع حتى ظهرت معها نواجذه. تتحرك يده اليمنى في تناغم رغم رعشتها مع موسيقى خلابة انبعثت عبر سماعاتٍ نقية للغاية قد أوصلها بهاتفه لترسل الموسيقى في الأنحاء وتحتل الهواء البارد المنبعث من التكييف. امتزجت مشاعره وجوارحه معًا، فالتهبت حماسته وهو يعدل بعناية من وضع آنية زجاجية وسط الطاولة التي فُرشت بأنواعٍ شتى من الطعام. كانت الآنية تحتوي على زهراتٍ يانعاتٍ زاهياتٍ أكسَبت الطاولة منظرًا مريحًا، وأضفت شعورًا بالبهجة لديه. هاجمت عقله ذكريات قريبة واقتحمته عنوة، حاول إبعاد صورتها عن عقله لكنه فشل، صورة وجهها الرطيب احتلت عقله، وهاجمت مشاعره، وداعبت وجدانه مثل كل مرة فتوقفت يده عند الزهور ليقفز في رأسه صوتها وهي تهمس بأذنه: عِدني أن وهج حبك لي لن يخبو. شعر بحرقانٍ في عينيه فاعتدل سريعًا وشردت نظرته، هز رأسه وهو يقاوم ذكرى

تعبث به، استدار ينظر إلى لوحةٍ لوجهٍ صبوحٍ جميلٍ مثبتة على الجدار وحدها، وظل يُمعن النظر فيها، ثم عادَ لهاتفه واختار من القائمة مقطوعة أخرى، وما إن انساب اللحن عبر السماعات، بدأ يتحرك في خطوات راقصة واهنة، احتضن فيها الهواء، وأراح رأسه وهو يغمض عينيه وأكمل رقصته مع نفسه.

«أعدك أن يظل قلبي ينبض بحبك.. فقط لا ترحلي».

كانت ممدة على سرير بالمشفى في حالة من الإعياء الشديد، ملامحها الجميلة باتت شاحبة، تلك النُضرة الواضحة ببشرتها غدت جدباء، فمن رياضٍ تمطرها سحائب الحب استحالت إلى أرضٍ بوار غدت سحائبها جهامًا، فأصفت مياهها، وتشققت أرضها. اقترب منها وجلس على المقعد المجاور للسرير، ثم التقط كفها برفق وترقرقت عيناه بالدموع، نظر إليها وابتسم في حبٍ، ثم انحنى وطبع قبلة على راحتها. عاود النظر إليها فقابلتْ عينيه بنظرة مست شغاف قلبه وتوغلت حتى أحاطته بحبها، وغرست في أعماقه مشاعر ندر وجودها. كان يتساءل كلما تألمت وتوجعت: لماذا هي؟ لماذا أصابها هذا المرض اللعين؟ لماذا تموت هي ويعيش غيرها؟ كاد يقنط من رحمة الله لولا تشجيعها له على الصبر، وأن قضاء الله نافد، وأنه مع الابتلاءات ترسَل الرحمات، وربما بصبرهما فازا بالآخرة والتقيا في الجنة. كان يراها دائمًا رحمة مهداه، ترفق به وبكل من حولها، وكأن صفاتها، وحنانها، ورفقها قد استمدوا من اسمها.. «رفقة».

ذات يوم، بينما كانا يجلسان بالحافلة وجدها تفتح حقيبتها -الممتلئة بالحلوى- وانتقت قطعة من الشوكولاتة وأعطتها لطفلة

تحملها والدتها التي تجلس بالمقعد أمامهما، بداية ظلت تداعب الطفلة في أمومة محرومة منها استشعرها هو بقوة، وحين ضحكت الطفلة أخرجت قطعة الحلوى لتهديها إياها، التقطت الطفلة الحلوى فالتفت الأم لتشكرها في خجل، وبعدما عادت لوضعها سألها في حنان: هذي رفقةُ رفقة! فابتسمت وتأبطت ذراعه وضمته إليها في سعادة. القدر لا يمهل ولا يتمهل، بل يمضي حيث أراد الله، كان يؤمن بأن الأقدار لا تتوقف، نعم، قد يفعل الدعاء ما لم يفعله الأطباء، غير أن النهاية باتت حتمية ومؤكدة، هكذا أخبروه، وهكذا سلَّم بقضاء الله.

بعدما طبع قبلته ورأى نظرتها حاول الابتسام في هدر فخانته عيناه وذرفت وحدها الدموع، لم يستطع التماسك، فانهار فجأة وسقط في بكاءٍ شديد ارتج معه جسده وسال أنفه وارتعشت يده، حاولت الاعتدال فلم تنجح، فحاولت أن تتزحزح تحت الآلام التي شعرت بها وكتمتها وهي تمنحه ابتسامة شاحبة جديدة، لم يزل كفها الرقيق بين كفه فأفلتته، ثم بأصابع واهنة حاولت أن تمسك كفه وهمست له في إعياء: ربما آن الأجل، ولكن لو قُدِّر وخرجت منها، فغاية سعادتي آنذاك أن لو تناولنا العشاء سويًا في أجواء رومانسية حالمة على طاولة تتوسطها آنية زهوري التي أفضلها. لم يدرِ وقتها أنه لن يرى ابتسامتها مجددًا.

ظل يرقص مع نفسه بتلك الخطوات الواهنة، ويدور، ويدور، حتى وجد نفسه أمام مرآة بالجدار المقابل للوحة، لمحها تبتسم إليه، فاقترب من المرآة، مرر أنامله على صفحة وجهه المتغضن فابتسم في حنان وهو يختلس نظرة من اللوحة، وأيقن أن حبه لها

مـا زال يحيـط قلبـه العجـوز مهمـا طـال الزمـن، وآمـن أنـه سـيأتي الوقـت الـذي تجمعـه بهـا جنـة واحـدة.

تمَّت بحمد الله

الفهرس

صديقي.. مُلحد؟! ١١

المُحترف ٣٥

شَنْكَابُوه ٣٩

المُتشرد ٤٣

المنتقبة ٤٩

الحياة ٥٥

الدُّمْيَة ٥٩

سائق التوكتوك ٦٣

حبٌّ مُحرَّم ٦٧

كريستينا ٧٥

حوراء حلب ٨١

الضَّعف ٨٧

غياب ٩١

سُخرة ٩٣

زهرتها اليانعة ٩٧

بائعةُ الليمون ١٠١

ذات يوم..... ١٠٥
يخلق من الشبه ١٠٩
الست راوية ١١٩
مدد يا حسين!..... ١٢٣
شاي بلبن أم جلال..... ١٢٧
مغامرة بحرية مع أخي جلال ١٣١
السعادة تطرق باب المقبلين ١٣٥
معزوفة الحياة..... ١٣٩